د. مشعل عبد العزيز الفلاحي

ما أعظمك!

رحلة في رحاب أسماء الله الحسنى
وصفاته العلى







رحلة في رحاب أسماء الله الحسنى
وصفاته العُلى



ما أعظمك!

رحلة في رحاب أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى

تـألـيـف

د. مشعل عبد العزيز الفلاحي



دمشــق


تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام



المقدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد؛

سأحدثك هذه المرَّة عن الله تعالى، عن ربّك، عن الذي خلقك وصوَّرك وأبدعك، وترك في كلِّ شيءٍ له آية! سأجعلك هذه الوهلة وجهاً لوجه مع ذلك العتاب الرباني: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].

لعلَّك تساءلت يوماً ما عن قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٤٧] ثم قلت لنفسك: هل من صورٍ وأحداثٍ ودلائل في الوحي على هذا المعنى الكبير؟.

أردت أن أعرِّف بالله تعالى من خلال أسمائه وصفاته، فاخترت أحد عشر اسماً من أسمائه تعالى، ثم

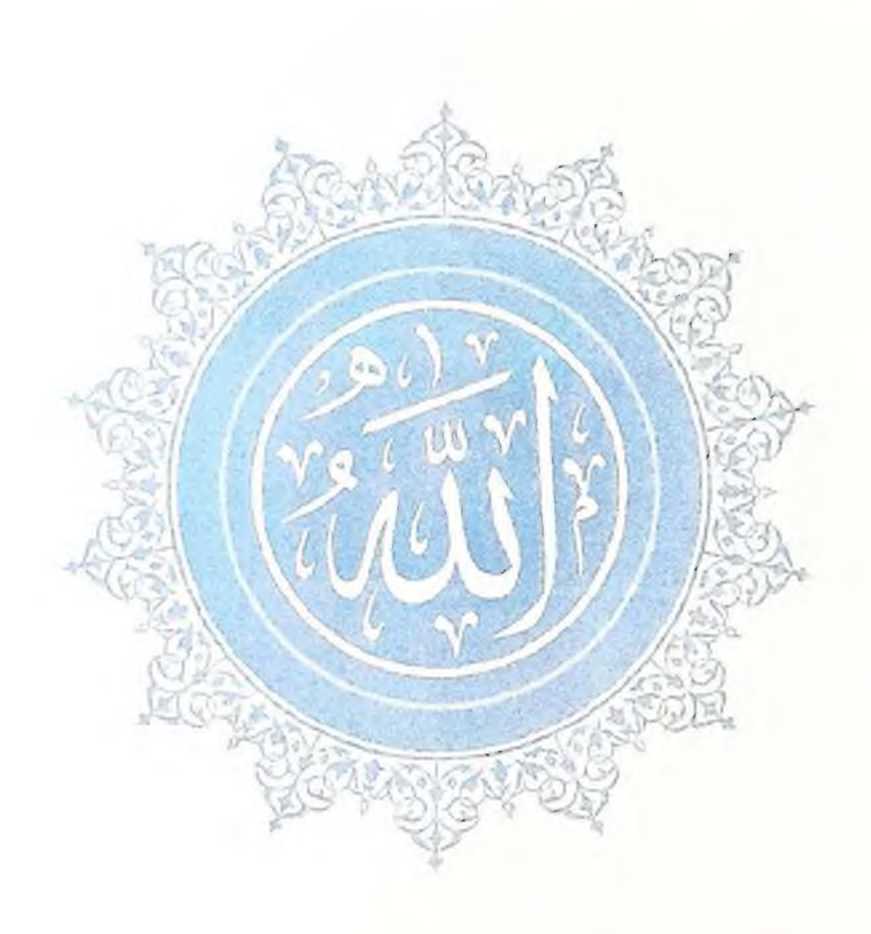


جمعت لك ما في كتابه تعالى وسُـنَّة نبيه ﷺ، وأحداث واقعك محاولاً رسـم معالم الجمال في تلك الأسماء، وحسبي أنَّني ذقت بعض ذلك الجمال، ويكفي الإنسان من الحياة أن يعرف شيئاً عن ربِّه تبارك وتعالى.

والله المسؤول أن يتولاه بتوفيقه، ويهب له من كرمه وجوده، ويجعله ذخراً لصاحبه في الدارين.

المؤلف

مساء الثلاثاء ١٤٤١/٨/١٤هـ


الله



الله

هل فقــدت محبوبــاً! هل ضاعت منــك حقائق الأشياء! هل تهت في بحور الضياع يوماً ما! قل لي: أين اتجه قلبك؟ وأين ذهبت بك مشــاعرك؟ إلى أيِّ شيءٍ كان يلتفت قلبك حين ماجت به أهواء الحياة؟.

دعك من عينك التي كانت في البدايات تبحث عن أحدٍ في ساحات تلك الصحراء أو في ظلام ذلك الليل، حدِّثني عن قلبك تلك اللحظة إلى أين كان يتَّجه؟ عن ماذا كان يبحث؟ ما الذي كان يدور في خلدك؟ قل لي: أين كان الله تعالى عنك في تلك اللحظات؟.

حين يضيع كلُّ شــيءٍ لا يبقــى إلَّا الله؟ حين تلوذ بكلِّ السبل، فتتوه في مفترق الطرق لا يبقى لك إلَّا الله، حين تضيع أمانيك على أيدي البشر لا يبقى سوى الله!.

هل تخيَّلت عافيتك، نشاط جسدك، الهواء الذي تتنفَّســه، روحك التي تجري في جسدك، وظيفتك،



مالك، مكانتك، كلُّ ذلك من الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الله الذي إذا جعت أطعمك، وإذا خفت أمّنك، وإذا افتقرت أغناك، وإذا ضعت ردَّك، وإذا استدنت يسَّر سداد ديونك، وإذا وقعت في ذنب رحمك وعفا عنك وغفر لك، وأجرى عليك ستره ما بقيت الحياة.

هل تدري ما الاسم الأعظم الذي إذا سألت به ربَّك أجابك، وحقَّق لك مرادك، ويسَّر لك مطلوبك؟ إنَّه الله!.

سمع نبيك ﷺ رجلاً يتضرَّع، ويقول: اللَّهم إنِّي أسألك بأنِّي أشهد أنّك أنت الله لا إله إلَّا أنت.. فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»! أخرجه الترمذي وصححه الألباني، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها!.

يا صاحب الهمِّ إنَّ الهمَّ منفرج

أبشر بخير فإنَّ الفارج الله

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه

لا تيأسنَّ فإنَّ الكافي الله



الله يُحدث بعد العســر ميسرة

لا تجزعــنَّ فإنَّ القاســم الله

إذا بليت فثق بــالله وارضَ به

إنَّ الذي يكشف البلوى هو الله

والله ما لك غيــر الله من أحد

فحســبك الله في كلٍّ لك الله

هذا هو الله تعالى الذي تفزع إليه عند حوائجك، وتهرع إليه عند نوائبك وأزماتك، وظروفك وحوادث زمانك، فمن لك غير الله!.

أُلقي إبراهيم عليه السلام في النَّار فماذا قال؟ وماذا صنع الله تعالى لــه! أوَّل ما أقبــل على النــار تذكَّر حرَّها ولهيبها، وتذكَّر في المقابــل ضعفه وقلَّة حيلته، نظر إلى نفسه ماذا يصنع في النار؟ فتذكَّر أنَّ لها إلٰهاً، وأنَّ للكون إلٰهاً، وأنَّ لإبراهيم الضعيف المســكين إلٰهاً، فقال كلمته التي تبعث أحداث التوحيد: (حســبي الله ونعم الوكيل) فما الذي حدث؟.

لعلَّ كثيريــن مــن المتحلِّقين حــول النَّار تلك اللحظة يقولون: وما تصنع (حسبي الله ونعم الوكيل)

في لهيب نار! لعـلَّ أمم الكفر تلـك اللحظة تضحك بملء أفواهها على قصة الإيمان التي يصرُّ عليها إبراهيم ويناضل من أجلها، فليرينا ما تصنـع له في النهايات! سقط إبراهيم في النار، فماذا تتوقَّع؟! ما الذي يدور في ذهنك، وهو في شـظايا لهبها المتطاير؟! هذه يا سيدي نار ليست قصَّة للعب واللهو! فما الذي تتوقع؟!.

هل تصوَّرت جماهيـر الباطل، وهـي مجتمعة، وتنظر بشوقٍ للنهايات، وتشتاق لرائحة لحم إبراهيم! وسـتعقد حفلات تعجُّ بالضحك والسخرية من أهل الإيمان! إنِّي لأعتقد جازماً أنَّ تلـك الجموع كانت تنظر للنهايات شوقها للحياة، ولكن هيهات.

انطفـأت النار، وخرج إبراهيم عليه السلام يمشـي على الأرض كما أدخل فيهـا أوَّل وهلة! هل تصوَّرت هذا المشهد! قل لي بربِّك ماذا لو كنت حاضراً في تلك اللَّحظة أو ترقبه عن قـرب! حدثني عن تلك الوجوه المصدومة من أحداث ذلك المشهد الكبير.

قل لي: أنت بنفسك أيُّها المؤمن لو كنت هناك، ماذا ستعني لك (حسبي الله) وأنت ترى المشهد رأي العين؟!.

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

ليست قصة لتسلية، ولا حديثاً للذكريات، بل حقيقة تبقى ما بقيت الحياة! حقيقة تدلُّك على الله! الله تعالى حين يقلب التوقُّعات، ويصنع الدهشة، ويكتب ما لا يجري في خلد إنسان!.

سأسألك الآن: الذي جعل لهب النار المتطاير برداً وسلاماً في لحظةٍ، والذي قلب سنن الحياة في طرفة عينٍ ألا يشفي مرضك، ويبرئ جرحك، ويعافي جسدك، ويعيد لك الحياة التي تبحث عنها، ويخرجك من مرضك وسقمك وأزمتك وظروفك كما أخرج نبيَّه إبراهيم من النار؟!.

من قال لك: أنَّ ديونك التي تحاصرك، وظروفك التي تلازمك، وحياتك المعقَّدة من سنوات ستبقى كما هي! من الذي ألقى إليك بهذه الأوهام؟! من الذي أغرقك بتصوُّرات لا علاقة لها بالحقائق في شيء؟.

لا تستعظم شيئاً على ربِّك! ولا تستغرب شيئاً على الله تعالى! فصول قصَّة إبراهيم في النار مجرَّد إشارة لي ولك وللعالمين أنَّ الذي يدير شأن الكون

هو الله، والذي جعل شرار النار يحرق مدناً بأكملها هو الله! والذي يجعل النار رماداً لا قيمة لها هو الله تعالى.

حين أقبل موسى عليه السلام عائداً بأهله من مَدْيَن في طريقه إلى مصر في ليلة ظلماء باردة، ورأى تلك النار في عرض الطريق قال لأهله: ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩] ما كان يدري عن الأحداث القادمة في حياته، مجرَّد نارٍ تشتعل في عرض الطريق، لعلَّها من آثار مستوقدٍ من برد الشتاء! أو لعلَّها آثار جائع من طول السفر والعناء!.

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠] من فضلك: أعد قراءة النصِّ مرة ثانية وثالثة وعاشرة، يا موسى إنِّي ﴿ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أيُّها الطريد والشريد والباحث عن الحياة! هذا أوان كلِّ شيء!.

أيُّها الخائف التارك لبلده والسائل عن الأعوان! هذا أوان الحياة! ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

حدِّثني الآن عن الظلام، قل لي: ماذا تمثِّل النار لموسى قبل دقائق ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ وماذا تمثِّل الآن؟! أما قلت لك ألف مرَّة أنَّ الله تعالى يدير كونه في لحظة، ويصنع فأل الحياة في لحظة، ويجري على عباده من الحياة ما لا يتوقعه إنسان في لحظة!.

أمَّا الطريق، فسأحدِّثك أنا عنه، فقد عاد الظلام نوراً، وانقلب البرد إلى سكينة، وتحوَّل الخوف والقلق إلى لحظات مدهشة فوق العادة! وكم من لحظةٍ غيَّرت وجه الحياة!.

سأسألك: هل كان يدري موسى أنَّه على موعدٍ مع ربِّه تبارك وتعالى؟ هل كان يخطر في باله تلك اللحظة أنَّه سيستمع إلى ربِّه تبارك وتعالى ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾ [طه: ١٣]، ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه: ٤١] هل كان

يتوقَّع أن بؤسه وظلام ليله، وطول طريقه سيعود في لحظةٍ إلى أمنٍ وسكينةٍ ونورٍ وهدى؟! إذا أردت أن تعرف هذه الحقيقة، فاقرأ مسترسلاً متأمّلاً متدبّراً: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾! ودعك من القراءة العجلى في مواقف الجلال والإكرام!.

قال أحدهم: كنت قاضياً فترة من الزمن، وكنت مديوناً تلك الأيام بثلاثمئة ألف، وكنت متزوِّجاً من زوجتين ولي أبناء، وذات يوم بعد أن أفطرت في الصباح الباكر توجَّهت إلى عملي، وبمجرَّد وصولي ناولني الموظَّف في المكتب خطاباً فتحته، فإذا فيه قرار فصلي من العمل!!.

لا تسألني تلك اللحظة لِمَ هذا القرار؟ وما حيثيَّاته؟ ولماذا في هذا الوقت؟ الصدمة التي لقيتها فوق كلِّ لحظة نعيمٍ عشتها على ذلك المكتب.

بقيت واجماً لساعات على المكتب ذاته لا أدري ما أصنع؟ أين أتجه؟ ماذا أقول لزوجتيَّ؟ أين أذهب بوجهي من العالم الذي حولي؟!.

أخذت خطابي، وخرجت من المكتب عائداً إلى البيت الـذي خرجت منه، فاسـتقبلتني زوجي، وقد عرفـت أنَّ في وجهـي ألف حكايـة! بالأمس كنت قاضياً، واليـوم أنا عاطل عن العمـل! بالأمس كنت موظفاً فـي أرقى الوظائف، واليـوم أحتاج إلى ألف رسالة رثاء قبل أن أجد عملاً!.

أعلمت زوجي بالخبر، فانفجرت باكيةً لساعات، وما كان لديَّ من عذرٍ لأكفكـف دموعها، وأُصبِّرها فضلاً أن أعدهـا بأحلام الحياة في مسـتقبل الأيام! وبقيت أتسـاءل: وما أصنع بقدر الله تعالى، وقد جاء على غير ميعاد؟! والحمد لله تعالى على كلِّ حال.

فجأة انتهى كلُّ شـيءٍ، بقيت زمناً لا أملك قوت عيالي فضلاً على أن أجـد الحياة بشـيءٍ من المال، وكلَّما سـجدت سـألت الله مُلحّاً أن ينتصـر لي من صاحب القرار، وليس في ذهنـي إلَّا هو، فاتني حينها أنَّ الله تعالى يدبِّر أمراً في السـماء! فاتني أنَّ ما يجري في الأرض هو الذي قدَّره وشاءه، وأجرى أحداثه على يد فلان، وليس للمخلوقين في ذلك شيء!.

ذات يوم وأنـا في بيتـي يأتيني اتصـال من أحد الأصدقاء، وقال لي: أحتاجك، وهو يعمل في المحاماة، دخلت عليه، واسـاني، وألقى إليَّ بمعاملة في مكتبه، وقال لي: هذه قضيَّة يمكنك أن تسـتعين بها في قضاء حوائجـك خلال هـذه الفترة ريثمـا نرى أمـراً آخر، فأخذتها، ولم تأخـذ منِّي أياماً إلَّا وقـد انتهت، وكان أجرها ثلاثمئة ألـف ريال! وهي أوَّل مـرة في حياتي يدخل هذا المبلغ حسابي، وأوَّل ما أخذتها سدَّدت بها كلَّ ديوني، وبقيت حرّاً من حقوق المخلوقين!.

مرَّت الأيام، ووقفت على قدمـيَّ، فتحت مكتباً مسـتقلّاً للمحاماة، ولعلَّك تسـأل، وأنت تقرأ هذه الأسطر ماذا صنع الله تعالى له؟.

كيف هي حياته بعد تلك الأحداث المروِّعة؟.

أين هو؟ وماذا صنع؟ وما الذي جرى في حياته؟.

وأدعك معه ليتمَّ لك الحكاية: يقول: أخبرك أنِّي أملك اليـوم ڤيلَّتين كلُّ زوجٍ في (ڤيـلَّا)، وأجد من نعيم الحياة ما لم يكن لي في الحسبان، وأخبرك أنَّني

قرَّرت أن أدعو لمن تسبَّب في فصلي في كلِّ صلاة، ولا أدري ما الذي أصنع لأجازيه!.

كنت أريد شيئاً، وكان الله تعالى يريد لي أشياء! كنت أرى الحياة من ثقب إبرة، وكان الله تعالى يريد لي أن أراها من أفق السماء! حين يرضى الله تعالى يصنع لك كلَّ شيء.

وتشاء أنت من البشائر قطرة
ويشاء ربُّك أن يغيثك بالمطر
وتشاء أنت من الأماني نجمة
ويشاء ربُّك أن يناولك القمر
وتشاء أنت من الحياة غنيمة
ويشاءُ ربُّك أن يسوق لك الدرر
وتظلُّ تسعى جاهداً في همَّة
والله يعطي من يشاء إذا شكر

كم مرَّة قرأت هذه الآية بقلبك ومشاعرك ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؟! كم مرَّة ردَّدتها على لسانك، وأخذت حظَّها من روحك! كم من قارئٍ لها وهو لا يعرف معناها.

انطلقت ذات مرَّة طائــرة، وكلٌّ من فيها يعتقدون أنْ لا إله! وفقــدت هذه الطائرة مســارها، وواجهت عاصفة، فأصبح كلُّ هؤلاء يردِّدون: (يا الله)! نسوا كل شيءٍ وبقي الله تعالى، ألقوا بعقائدهم الضائعة في تيه الصحراء، وفرَّغوا قلوبهم من كلِّ شــيءٍ إلَّا من الله، وفزعوا مضطرين إلــى الله ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطــر: ٢] يفتح الله تعالى رحمتــه للفقير، فيعود غنيّاً، يســكن حجرة ليس فيها شيء من الحياة، فتعود أشبه ما تكون بالقصور، ينام على حصير، فإذا به مع رحمة الله تعالى كالفراش الوثير، يأخذ مالاً قليلاً، فإذا به مع رحمة الله تعالى كلَّ شــيء، يتزوّج مــن بيتٍ فقيــرٍ، فيغنيه الله تعالى أبد الدهر! ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: ٢] يأخذ راتباً ضخماً كلَّ شهر، فيمسك الله تعالى عنه رحمته، فلا يُبقي منه شيئاً، يســكن قصراً منيفاً، ولا يجد فيه راحة، ويتقلَّب على فرش النعيم، ويشعر بأنَّها كالشوك

تلظى جسده ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾! إذا فتح الله تعالى باب رحمة جرى النعيم على صاحبه بأيسر الأشياء وأقلِّها، وإذا أمسك عنه باب رحمة لم يجد شيئاً، ولو كانت الدنيا تتهادى بين يديه!.

إذا ضاقت بك الظروف، وسُدَّت في وجهك أبواب الفرص، وقلَّ المُعين الذي يأخذ بيدك، ولم تجد شيئاً يستحق الحياة، فيمِّم وجهك إلى الله تعالى ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] تخلَّ عن هذه الدنيا بكلِّ ما فيها، واترك كلَّ ما علق بقلبك منها، واهرب إلى الذي يدبِّرها، ويصنع لك فيها كلَّ شيء.

جاء في ترجمة الخليفة العباسي المهدي ابن أبي جعفر المنصور، قال ابن رشيد: هاجت ريح سوداء فسمعت الحاجب يقول: فُجعنا أن تكون القيامة، فطلبت المهدي في الإيوان، فلم أجده، فإذا هو ساجد على التراب يقول: اللَّهم لا تُشمِّت بنا أعداءنا من الأمم، ولا تُفجع بنا نبيَّنا، اللَّهم إن كنت أخذت العامة بذنبي، فهذه ناصيتي بيدك. فما أتمَّ كلامه حتى انجلت.

ثمّة مشهد يحدث في السماء! تجري مشاهده العذبة هناك، في ملكوت الله تعالى، مشهد تجري أحداثه بين الله تعالى مالك الملك عظيم الشأن الكبير المتعال، وبين روح القدس جبريل عليه السلام، حدّث به النبي ﷺ فقال: «**إذا أحبَّ الله عبداً دعا جبريل فقال: إني أحبُّ فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبريل، ثم ينادي في السّماء فيقول: إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهل السماء**» رواه البخاري، من فضلك: ألق بسمعك وبصرك في رحاب هذا المشهد! هات مشاعرك أولاً قبل كلِّ شيء!.

حدِّثني بما جرى في قلبك ووجدانك وروحك من أحداث هذا المشهد الكبير! الله تعالى في عليائه، الله جلَّ في ملكه تعالى وتقدَّس وتعاظم ذو الجلال والإكرام ينادي جبريل ليخبره عن إنسان، يحدِّثه عن حبِّه له «**إنِّي أحبُّ فلاناً**»!.

قل لي بربّك: ماذا لو كان الاسم الذي يتردَّد في السماء اسمي أو اسمك؟!.

ماذا لو بلغك بعض أحداث هذا المشهد تدار في بلاط مَلك من ملوك الدنيا، ونُقل إليك أنَّ ثمّة مشهد

احتفاء جرى لك على بلاط المُلْك! أعرف يا صاحبي أنَّك لن تنام ليالـــي متتابعة، والليلة التـــي تقرّزُ فيها النوم ســتذهب كلُّها في مشــاهد أحلام ذلك البلاط فحســب. فإذا امتلأ قلبك من هذا المشــهد وارتوت روحك منه، وبلغت منــه حدَّ الريِّ، فانقل نفســك وقلبك ومشاعرك إلى مشهد الجلال هناك، إلى مشهد السماء، إلى مشهد الكون كلِّه هناك.

حين ينــادي الله تعالى جبريــل ﷺ ليخبره عن حبِّك! «**إنِّي أحبُّ فلانــاً، فأحبَّه**» فبــالله وتالله ووالله ما ســمعت أذنــي بخبر مدهــش كهــذا الخبر! ولا حضرت مشاعري مشــهداً كهذا المشــهد، ولا رأت عيني حرفاً في الحبِّ كهذا الحرف، ولا زلت جاهلاً بالحبِّ حتى قرأت هذه الرواية بتفاصيلها المدهشــة هنا في رحاب هذا الحديث.

لم ينته المشهد بعد...!.

ماذا ترتَّب على خبر الله تعالــى لجبريل ﷺ أنَّه يحبُّك!، وقف جبريل ينادي في أهل السماء! أتدري من هم أهل السَّــماء؟! قال ﷺ: «**أَطَّت السَّماء وحقَّ**

لهـــا أن تئط، ما فيهـــا موضع أربع أصابـــع إلَّا ملكٌ واضعٌ جبهته ساجداً لله» رواه الترمذي وصححه الألباني.

ينادي جبريل عليه السلام في كلِّ هذه الحشـــود «**يا أهل السماء! إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبُّوه**» فيحبُّه أهل السماء ويوضع له القبول في الأرض!.

سأسألك الآن، وفي ثنايا هذا المشهد:

ماذا بقي عليك من مشـــاهد الجمال، والحياة لم تتحقق لك؟.

حدثني: ماذا لديك هذه اللحظة؟ وما الذي لدى العالم من حولك؟.

دعك من حاجتـــك للمال، والوظيفة، والســـكن حدِّثني عن قلبك ومشاعرك وروحك!.

فإذا شبعت من هذا المشـــهد، وجرت في قلبك أحداثه، ورأيت كلَّ شـــيءٍ فيه تعالَ إلى هذا المشهد في رحاب جلال ربِّك تبارك وتعالى.

في البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ الله قال: «**من عادى لي وليّاً، فقد**

آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشـيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببته: كنت سـمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشـي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن اسـتعاذني لأعيذنَّه، وما تردَّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمـن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».

الله تعالى يتولّى إدارة الحرب عنك «**من عادى لي وليّاً، فقـد آذنته بالحرب**» إن كنت مـن أوليائه، من المتقين، المقبلين، فهو تعالى يتولَّى عنك كلَّ شيءٍ!.

يبيت أعداؤك يتحدَّثون عنـك، ويخطِّطون لك، ويتمالؤون عليـك، ويرصدون لك فـي كلِّ خطوة، ويحسبون عليك أنفاسك، والله تعالى يتولَّى بتدبيره حمايتك، وردِّ عـدوِّك عنك، وجعل جهده وسـعيه وبذله إلى بوار وضلال!.

يرتِّبـون لك في كلِّ مرَّة مشـهداً من مشـاهد البطش، ويصنعون لك في لحظة كميناً يصطادونك

فيه، والله تعالـى يتولّى كلَّ شـيءٍ عنك، ويدفع بهؤلاء كأنَّهم لا شـيء «**من عادى لـي وليّاً، فقد آذنته بالحرب**».

قل لي: إذا كان الله تعالى معك ماذا بقي لك؟.

حدِّثني حين تنام قرير العيـن والأعداء يرصدون أنفاسك، ثم الله تعالى يحرسك، ويدافع عنك، ويردُّ عنك كيد الأعـداء، فلا يبقى معهم فـي الصباح من تلك المشاهد التي رصدوها شيئاً!.

هذا المشهد يكفي عن ألف مشهدٍ وحكايةٍ وقصَّةٍ!.

بقيت مشـاهد أخرى فـي الحديث أكثر دهشـة وأجمل معنى!.

«**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشـيءٍ أحـبَّ إليَّ ممَّا افترضت عليه**».

لا شيء يمنحك حبَّ الله تعالى أعظم من أدائك لواجباتك وفرائضك! لا شـيء يمنحك حبَّ ربِّك، ويقربك إليـه، ويجعلك في عـداد المحبوبين لدى ربِّك كعنايتك بفرائضه عليك.

ليس هناك شيء أعظم ولا أجمل ولا أدهش من أن تتقرَّب إلى ربِّك من خلال الأركان والفرائض التي طلبها منك. فكن على يقين، وأحسن الإقبال، وأقم حقَّ هذه الفرائض تردُّ عليك من أقرب الطرق وأيسر المسالك بما لم يكن في الحسبان!.

وثمَّة مشهد آخر:

«وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه».

تتعبَّد لنفسك، تصلِّي، تصوم، تحج، تتلو كتاب ربِّك، تصنع نوافل لراحتك في يوم الحساب، وتبحث عن نجاتك وعزِّك، والله تعالى لا يحقِّق لك ذلك فحسب، وإنَّما يسقيك من نعيم الحياة ما يشاء!.

«وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه» الله تعالى يحبُّك! الله تعالى يودُّك!.

كلَّما زدت في النافلة زاد حبُّ الله تعالى لك! وفوق ذلك بكثير (وإنَّك لن تسجد لله تعالى سجدة إلَّا رفعك الله بها درجة)!.

وايم الله لو كنَّا نقرأ هذا الحديث بمشاعرنا لما رفعنا رؤوسنا من السجود إجلالاً وتعظيماً وتقديساً!.

عفواً: لا تذهـب بعيـداً، بقيت مشـاهد أخرى سأقصُّها عليك: (**ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه**)! متى؟ وكيف؟ وأين؟ كلّ لحظة، وفي كلّ مكانٍ، وكيفما تشاء!.

هل تريد شيئاً! هل اشتاقت نفسـك لأمنية! هل تعلَّقت نفسك بأمر ترجوه، وتسعى إليه وتؤمّله! قريباً سيكون بين يديك (**ولئن سألني لأعطينَّه**)! يا صاحبي هذا ربُّك الذي يقول، وليس وعداً من مسؤول!.

فإن قلت: يكفي ذلك! شـبعت مشاعري من كل شـيء! آن أوان الفرح، فسـأقول لـك بقيت خاتمة المشهد ونهاية المطاف:

يحكي الله تعالى في هذا المشهد أنَّه تعالى يتردَّد تردُّداً يليق بجلاله تعالى! يتردَّد عن ماذا! في أيِّ أمر؟ ولأيِّ شيء؟.

يتردَّد الله تعالـى تردُّداً يليق بجلالـه في اللحظة التي يقدِّر موتك ورحيلك، وقبض نفسـك ووداعك من الدنيا! (**وما تردَّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**).

الله تعالــى يخبــرك أنَّ اللحظة التــي كُتب فيها رحيلــك وموتك ووداعك يتردَّد جــلَّ في علاه تلك اللحظة في ذلك الأمر، لِمَ يا رب؟! لِمَ هذا التردُّد؟! قال تعالى: يكره الموت وأكره أن أسيء له بالموت!.

لأنك تكره الموت ولا تحبُه، فالله تعالى يتردَّد في قبض روحك لا يريد أن يسيء لك بفواجع الموت!.

وا شوقاه إلى الله تعالى! وا شــوقاه إلى لحظات الأنس والجمــال والحياة! ووا أســفاه على لحظات ضاعت منَّا في غير طريق!.

فإن كان من وصيَّــة خاتمة لتوحيدك، وعبادتك، ومنهجك، فتعلَّق بهذه الوصية، فهي خاتمة كلِّ شيءٍ ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦].



الـرَّبُّ

يا ربُّ! من لنا غيرك فنرجوه، ومن لنا سواك فندعوه! يا ربُّ كلُّ شيء هالك إلَّا وجهك!.

يا ربُّ تقاصر دونك كلُّ شيء، ولم يبق لنا سواك.

يا ربُّ أنت ربُّ كلِّ شيء ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [الرحمن: ١٧] أنت الذي تملك نواصي العباد، وتدبِّر شؤونهم وأمورهم، وتصنع لهم كلَّ شيء ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود: ٥٦]، ما يجري في الأرض بإذنك، وما يكون في السماء بأمرك، وما يجري في الكون إنَّما يكون بقدرك، وأنت أقدر على كلِّ شيء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨].

أوَّل سورة في كتابه تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، وأوَّل كلمة في كتابه من تلك

السورة: ثناء عليه وتقديس لجلاله تعالى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، كلُّ مدعوٍّ دونك، فليس بشيء ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]!.

الحمد لك يا ربُّ على رزقك، وعلى توفيقك، وعلى حلمك علينا، وعفوك عن أخطائنا، وسترك لعيوبنا.

لك الحمد على عافيتك، وعلى كلِّ نعمك، الحمد لله على كلِّ شيء.

الربُّ هو المالك، السيِّد المدبِّر والمربِّي والقيِّم والمنعم، وإذا قيل الربُّ تساقط أرباب الدنيا كالذر في هذا المقام العظيم! هو الذي يتصرَّف في كونه كيف شاء، متى شاء، على أيِّ صورة شاء! وهل يملك أحد أن يصنع مثقال ذرة في ملك الربِّ؟!.

هو تعالى الذي يدبِّر، ويخلق، ويرزق، ويحي ويميت، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعزُّ ويذلُّ، ويُصرِّف كونه بمشيئته وإرادته ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] فالحمد لله ربِّ العالمين.

ربُّك الذي خلقك وأوجدك، وربُّك الذي أمدَّك وأنعم عليك، وربُّك الذي هداك ودلَّك على الطريق،

ربُّك الذي صنع لك كلَّ شـــيءٍ كما قال أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢] الحمد لله ربِّ العالمين.

كلُّ هذا الخلق الذي تراه من إنسٍ وجنٍّ وشـــجرٍ وحيوانٍ، وطيرٍ وحشرات، وسماء وأرض وجبال كلها، ما كان منها وما لم يكن، العالم بأسره له تعالى وفي قبضته، ويجري في فلك حكمه ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ [الصافـات: ٥]، ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: ٩] الحمد لله رب العالمين.

ربُّك هو الـــذي يتولَّـــى أمرك، ويهـــدي قلبك، ويدلُّك علـــى الطريق، ويحميك مـــن الضلال، وفي سورة الضحى شـــجون ذلك المعنى الكبير، قال الله تعالى ممتنّـــاً على نبيّـــه ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾ [الضحـــى: ٧، ٨]، ومن وعى قول الله تعالى ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِى رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىۡءٖ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] أدرك كلَّ شيء!.

كم مـرَّة أوقفت سـيارتك في عـرض الطريق، وألقيت بنفسك نائماً، وحولك ألف خطر، وفي قلبك ومشاعرك ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فنمت هانئ البال مطمئن القلب، ولم يبقَ في قلبك شـيء من خوف المخلوقين!.

كم مرَّة خرجت في ظلام الليل، وليس معك أحد إلَّا الله، ويأتي عليك الفـأل من هذا المعنى ألف مرة ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فتنام قرير العين ليس لك إلّا الله!.

حين وقع آدم وحواء في الخطيئة ضلَّ عنهما كلُّ شـيءٍ وبقي الله الربُّ، فقالا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فأدنى الله تعالـى عليهما سـتره وعافيته وتوبتـه ورحمته، فتجاوز عنهما وعفـا عنهما، وأجـرى عليهما لباس الستر والعافية والتوفيق بعد كلِّ شيء.

تعرَّض موسـى عليه السلام لحـوادث في طريـق حياته أودت به للخوف والقلق والاضطراب، وكان يُتربَّص

بقتله، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]، ولك أن تتصوَّر فرداً وحيداً لا يملك ما يدفع به عن نفسه، ويأتيه خبر تربُّص القوم به فماذا يصنع؟ إلى أين يفرُّ؟ ما المخرج وهو لا يملك شيئاً؟ ولكن من عرف الله تعالى عرف كلَّ شيءٍ، قال تعالى مخبراً عن حاله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، خرج ولكن إلى أين؟ خرج محمَّلاً بهمومه وغمومه وأثقاله وخوفه وترقبه؟ ولكن إلى أين؟ خرج خائفاً يترقَّب، وهو يتوقع أن يجد المتربِّصين به في عرض طريقه، ولكنَّه يمَّم وجهه إلى الذي يملك كلَّ شيء، خرج وليس له سوى الله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ تخلَّص من حيلته، وتدبير نفسه، وكلِّ ما يملك، وتوجَّه إلى الله ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، ولمَّا بدأ طريق الغربة والخوف والقلق والوحشة ألقى بمشاعره إلى ربِّه تبارك وتعالى قائلاً: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]

فليس إلَّا هو تعالى يهدي عبده ويدلُّه، ويرشده ويلم
أمره، ويصنع له كلَّ شيء!.

ولعلَّك تسأل ثم ماذا!؟! ما الذي جرى له في النهاية؟ أين استقرَّ به الحال؟ ماذا صنع له تدبير ربِّه؟! أين ألقى به؟ قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ۝ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص: ٢٣ ـ ٢٨].

سنن الله تعالى أنَّ توفيقه ونجاته لك لا تأتي هكذا في عرض الطريق، وإنَّما يخرجها الله تعالى لك في شكل أسباب يختبرك بها، ويمتحن صدقك من خلالها، وهي بداية الأفراح!.

توجَّه إلى مدين شريداً طريداً باحثاً عن الحياة، فيُجري الله تعالى له سبباً في عرض الطريق يكون هو كلُّ شيء، وما أكثر الأسباب التي تعرض لنا في مرَّات تكاد تنقلنا من واقعنا إلى الحياة، فنرفضها ونتولَّى عنها مستعجلين!.

فتاتان تحوزان غنمهما عن البئر في انتظار صدور الناس عن الماء، وكان هذا سراج الظلام، وأوَّل فتيل الحياة! كم من سائل في هذه اللحظة: ما علاقة أمن خوفه، وسلامة حياته بفتاتين لهما ظروفهما؟! وربَّما قال قائل: كان أجدى له أن يلحق نفسه، فكلُّ دقيقة تأخُّر بألف دقيقة في صالح عدوِّه الذي يطارده! ولكن لله تعالى حكمة، والمعروف لا يأتي إلَّا بعوائد الخير على أصحابه وأهله!.

سقى لهما، فبدأت الحياة! صنع جميلاً ثم ألقى بنفسه من جديد إلى الله تعالى ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

يا الله ما أحوجنا لهذا الفقر، لهذه الذلّة، لتلك المسكنة التي تُلقي بنا إلى الله تعالى من أقصر الطرق، وأقل المسافات!.

وأعظم الأبواب التي يدخل منها الإنسان على ربّه تبارك وتعالى باب الفقر والذلّ والمسكنة! ثم توالت عليه النعم حتى بلغت به حدَّ الطمأنينة الكبرى ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ﴾! خرج شريداً طريداً، ثم ألقى الله تعالى به إلى الحياة!.

وحين أظلم ليل السجن على يوسف عليه السلام لم يجد بدّاً من الحنين إلى ربّه وسؤاله ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] فسلَّمه تعالى من كيدهن، وأخرجه من السجن، وأعطاه الملك، وأقبل به إلى الحياة.

ولمّا بذل زكريا كلَّ ممكن للولد، فلم يصل إلى شيء عاد إلى ربّه تعالى ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً﴾

[آل عمران: ٣٨] فجاءه الفرج أعجل ما يكون، قال تعالى ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠] سأل ولداً، فجاءته البشائر بالولد وبغير الولد، ومن كان مع الله تعالى كان الله تعالى معه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وهل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟!.

وحين اشتاق سليمان عليه السلام إلى الملك، فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [صَ: ٣٥] جاءته البشائر أسرع ما تكون ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [صَ: ٣٦ ـ ٣٨] إلى أن قال الله تعالى له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صَ: ٣٩]. أعط منه من شئت، وامنع من شئت، فلن تحاسب في عطاء أو منع!.

وأقبلت امرأة عمران تدلي بسؤالها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] فجاءت البشائر ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكان رسولنا ﷺ يدلُّنا أن نقول في دعاء الاستغفار «**اللهم أنت ربي لا إلٰه إلَّا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرِّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت**» رواه البخاري، وإذا أخذ مضجعه ردَّد قائلاً: «**اللهم ربَّ السمٰوات السبع وربَّ العرش العظيم، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء**» رواه الترمذي، وإذا افتتح صلاته قال: «**اللهم ربَّ جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السمٰوات والأرض**» رواه مسلم، وكان يدعو عند الكرب قائلاً: «**لا إله إلَّا الله العظيم الحليم، لا إله إلَّا الله ربُّ العرش العظيم، لا إله إلَّا الله ربُّ السمٰوات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم**» رواه البخاري.

يركع المصلي، فيعظِّم الله تعالى، ويرفع شأنه (سبحان ربي العظيم)، ويدنو ويسجد على الأرض، ويضع وجهه

أشرف ما فيه ثم يقول: (ســبحان ربي الأعلى) إذا عرف الإنســان ربَّه تعالى قام له بكلِّ شــيء، كــم هو الفرق السَّحيق بين وجه الإنسان أشرف ما فيه يضعه في التراب عبوديــةً لله تعالــى، ويعلي ربَّــه، وهو في تلــك الحال (ســبحان ربي الأعلى) الأعلى في مكانــه، والأعلى في سلطانه، والأعلى في ربوبيته، والأعلى في كلِّ شيء!.

يا ربِّ إن عظمت ذنوبي كثرة
فلقد علمت بأنَّ عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلَّا محسن
فمن الذي يدعو ويرجو المجرم
أدعوك ربِّ كما أمرت تضرُّعاً
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
ما لي إليك وســيلة إلَّا الرجا
وجميل عفوك ثم إنِّي مســلم

حين تعرف ربَّك تعرف كلَّ شــيءٍ! وحين يضيع هذا المعنى من قلبك لا يبقى لك شــيء، عرف فتية الكهف ربَّهم تبارك وتعالــى، وهم في مقتبل العمر، وبداية الحيــاة، فآمنوا بــه، وعبدوه، وأقبلــوا إليه،

وصدقوا معه، فوجدوا كلَّ شيء، وحين أُجبروا على ترك دينهم، والتخلّي عنه خرجوا فراراً من الظلم، وتركوا كلَّ شيء، ودعوا بيوتهم وأهلهم فراراً إلى ربّهم تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣] فما النهاية؟.

فتية وفي مقتبل العمر تحمَّلوا أعباء القضيّة التي عاشوا لها، وتركوا كلَّ شيءٍ وإلى أين؟ إلى ربِّهم الذي يرجون عنده كلَّ شيء.. دعك هذه اللحظة من التساؤلات الباردة أين يذهبون؟ وإلى أين يتَّجهون؟ وما تصنع لهم الصحاري في زمان البغي والعدوان؟.

تعالَ لتشاهد ما الذي جرى في تلك اللحظات:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ فما النتيجة؟ ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] هذه سنة الله تعالى التي لا تتخلّف! مَنْ أقبل عليه أكرمه وزاده، وثبَّته وأجرى في مشاعره الحياة!.

وليس هذا فحسب!.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الكهف: ١٤] قوّينا قلوبهم، وثبّتناهم على الحق، ورزقناهم الصبر، وألقينا في قلوبهم الحياة.

وليس هذا فحسب!.

﴿ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ [الكهف: ١٦] توجَّهوا إلى الجبل ففيه كلُّ شيء! الصخور، والحجارة التي ترونها ستجري فيها الحياة لأنَّكم في كنف الربّ! الظلام التي تعيشونه سيتحوّل إلى نور! الضيق الذي ترونه سيفتح لكم الأبواب على مصراعيها!.

﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الكهف: ١٦] يبسط لكم رحمته، رحمة الأمن، والسكن، والراحة والاستقرار، والدفء، والنعيم، وكلّ شيء! رحمته التي إذا جرت في قلبٍ ألقت فيه الحياة، وإذا سكنت مكاناً جعلته أفسح ما يكون، وإذا أقبلت على ظلام بدَّدت ذلك الظلام، وأعادت فيه أنوار الدنيا كلِّها.

تحوَّل الجبل إلى حياة، وعاد كهف الظلام إلى نور، وقرَّت عيون المقبلين على الله تعالى، ووجدوا كلَّ شيء.

ليس هذا فحسب!.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦] فيحفظكم من عدوِّكم، ويحميكم منه، ويعوّضكم عن العيش في بيوتكم، ويحفظ دينكم، وأبدانكم، ويجعلكم آية من آياته في العالمين، وينشر لكم الثناء الحسن، ويصنع لكم كلَّ شيءٍ في أعطاف ذلك الكهف الصغير!.

ليس هذا فحسب!.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٧] ألقى الله تعالى عليهم النوم، وحفظهم من عدوِّهم، حتى الشمس إذا أشرقت مالت عنهم قليلاً، يصيبهم نفعها ولا يؤذيهم حرُّها، وإذا عادت إلى الغروب كذلك.

ليس هذا فحسب!.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨] يراهم الناظر فيحسبهم مستيقظين لانفتاح أعينهم، وقد ألقى الله تعالى عليهم النوم، ويُقَلَّبون ذات اليمين وذات الشمال حتى لا تأكل الأرض أجسادهم.

ليس هذا فحسب!.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨] لو هُيِّئ لأحدٍ أن يقترب من ذلك الكهف، فسيرى كلباً، وهو باسط ذراعيه على عتبته، ولما تمالك الناظر إليهم من الهروب خوفاً وذعراً! وهم في الحقيقة أموات.

وإذا أردت أن تعرف ما الذي جرى بعد ذلك؟ ما النهاية التي آلت إليها تلك الفئة المؤمنة في النهايات؟! فعليك بتراتيل تلك القصَّة في كتاب ربِّك، وسترى فيها كلَّ شيء.

هذا هو ربُّك تعالى يدبِّر أمرك، ويرأف بحالك، ويعطف عليك، ويصنع لك في النهاية كلَّ شيء.

خرج إبراهيم الخليل عليه السلام بزوجه (هاجر) وابنها (إسماعيل)، وهو رضيع وألقاهما عند الكعبة عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس معهما من زاد الحياة شيء، وضع عندهما جراباً من تمر وسقاءً ثم تركهما، فتبعته تلك المؤمنة الصالحة فقالت: أين تذهب يا إبراهيم وتتركنا؟!.

أرض بلقع من الحياة، ووادٍ مقفر ليس فيه شيء.

صحاري تلقي في قلبك ومشاعرك ألف رسالة من الضياع!.

وهذه امـــرأة وطفل رضيع! تتبعـــه وتلحُّ عليه، وتسأله ســؤال غربة، ووداع وألم وخوف الضياع: لمن تتركنا يا إبراهيم؟ فكان لا يلتفت إليها، ولمّا يئســـت من الجواب قالت: آلله أمرك بهذا؟! فقال: نعم! قالت: إذاً لا يضيِّعنا!.

(إذاً لا يضيِّعنا)! تكفي عن كلِّ معرفة تتعلَّمها في مستقبل الأيام!.

رسالة عن عمر إنســـانٍ قضاه في بساط المدارس والجامعات والمساجد يتعلَّم فيها العقيدة!.

كم هي حاجتنا إلى هذه الرسالة!.

(إذاً لا يضيِّعنا)!.

هذه هي العقيدة التي تحتاج إلى إعادة تأهيل في قلوب العالمين!.

صحراء مدوِّية، وقفار مهلكة، وجبال عاتية ولا بشر من الخلق، وتقول وهي آمنة مطمئنة: (إذاً لا يضيِّعنا)!.

كم هي المسافة بين قولها أوَّل وهلة حين لا تعرف سبباً لذلك الترك (أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي لا أنيس فيه ولا شيء؟) ثم لمَّا عرفت أنَّ الله تعالى أراد منه ذلك إذا بها تقول: (إذاً لا يضيِّعنا)!.

تتأخَّر في مرَّاتٍ الوظيفةُ التي نرقبها، ويطول انتظار الولد الذي نشتاق إليه، وتتشوَّف نفوسنا لعلاج تلك الأمراض التي أحاطت بأجسادنا، وقد يصيبنا اليأس من طول الانتظار، وهذه المرأة في عمق الظلام تردِّد عقيدة الحياة (إذاً لا يضيِّعنا)!.

ودَّعهما إبراهيم عليه السلام وتركهما، ولكنَّه ألقى إليهما في الوقت ذاته بالحياة.

توجَّه إلى ربِّه تبارك وتعالى، واستقبل القبلة وبدأ يردِّد: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]! لِمَ تفعل كلَّ هذا يا إبراهيم؟.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ما خبر تلك المرأة! وما شأن الدعاء! وما قصَّة الحياة التي تنتظرها؟!.

نفد الماء عليها وعلى صغيرها، وفي مرَّاتٍ كثيرةٍ تأتي المنح من عمق المحن، وإن كانت تحتاج إلى قليل من الصبر حتى تردَها في النهايات.

نزلت تجري وتنظر وتلقي بآمالها لعلَّ من يسمع صوتها، ويغيث وليدها، ويجري لهما الحياة.

نفد الماء فلا سقاء! فهل ينفد الأمل كذلك؟!.

قلت لك ألف مرَّة: انتظر قليلاً فقد آن أوان الحياة.

سيدقُّ باب أملك بأفراحك قبل الفجر!.

سيحين موعد أَمَلِكَ في قادم الأيام!.

لم يعد يفصلك عن زواجك، ووظيفتك، وولدك، ونجاحك سوى مسافة الطريق، ثم تحين الأفراح!.

نفد الماء فلا سقاء! فهل ينفد الأمل كذلك؟.

حدِّثني: هل مرَّ بك ليل لا يبدِّده صبح الأمل!.

قل لي: حين غابت الشمس أما عادت من جديد!.

أمَّا أنا فلم أَرَ ميلاداً كميلاد الفجر، ولا ضوءاً كضوء الشمس، ولا حلماً يجري في مشاعري كحلم الأمل!.

نفد الماء فلا سقاء! فهل ينفد الأمل كذلك؟.

جاء فرج الله تعالى، حان موعد (إذاً لا يضيِّعنا)! فنزل الملك، فبحث بعقبه أو بجناحه، فظهر الماء في الأرض المقفرة، ولم يتوقف من تلك اللحظة التي نبع فيها حتى هذه اللحظة وإلى قيام الساعة!.

حتى تتيقَّن عقيدة: (إذاً لا يضيِّعنا) تحين عطايا الربِّ تعالى فيصنع كلَّ شيء.

يا الله كم في الغيب من أمل! كم من عسرٍ يؤول في النهايات إلى يسر! وكم من ضائقة في حياة إنسان لم يبقَ سوى الليل فاصلاً بينها وبين موعد الأفراح!.

غداً تشرقُ شمس الفجر وتعود الحياة!.

غداً يعود الربيع، وتعود في قسماتنا الحياة!.

غداً تسلّي جراحَنا الأفراح، وتكتب حظَّنا من الحياة!.

وها أنت تشرب من زمزم كما شربت تلك المرأة وابنها في حالك ظرفها وأصعب أيامها وأقسى لحظاتها، وسيشرب العالم من يومك هذا إلى آخر يوم في الدنيا، وستجري في قلبك، وقلب كلِّ من آمن بالله تعالى مقولة تلك المرأة في صحاري مكة يوماً ما (إذاً لا يضيِّعنا!).

حين رأت الماء على لهفة خافت أن يضيع ويتلاشى وينتهي، فجعلت تحوضه حتى تأخذ كفايتها منه، وفي البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (يرحم الله أمَّ اسماعيل، لولا أنَّها عَجِلَت لكان زمزم عيناً معيناً).

وهنا بدأت الحكاية! ولن أقصَّها عليك، يكفيك أن تتخيَّل اللحظة التي ترك إبراهيم عليه السلام تلك المرأة

وصغيرها في صحــراء مدوية، وهــذه اللحظة التي تعيشها مكة!.

وإذا أقلقك همٌّ، وضــاق عليك أمرٌ، وداهم قلبك اليأس، فردِّد عقائد الكبار: (إذاً لا يضيِّعنا)!.

وتشــاء أنت من البشائر قطرة
ويشاء ربُّك أن يغيثك بالمطر
وتشاء أنت من الأماني نجمة
ويشاء ربُّك أن يناولك القمر
وتشــاء أنت من الحياة غنيمة
ويشاء ربُّك أن يسوق لك الدُّرر
وتظلُّ تســعى جاهداً في همَّة
والله يعطي من يشاء إذا شكر

الـواحـــد

إذا دهمك المــرض، وواجهتك المشــكلات، وأظلم ليلك، وغابت شمس نهارك، وولّى عنك كلٌّ من حولك، فقل لي حينها: إلى أين سيتَّجه قلبك؟ وما الذي ســيجري حينها في مشــاعرك؟ حدِّثني: تلــك اللحظــة إلــى مــن ســتفضي بحوائجك؟ يا صاحبي كن على يقينٍ أنّه لا يبقى إلّا الله الواحد جلَّ في علاه!.

أسوأ ما يواجه الإنسان في حياته كلِّها الشتات، وأرقُّ وأعــذب وأدهــش ما يجد في حياتــه كلِّها الوحدة الشعورية النفســية التي يجد فيها وبها كل شيء، وليس في الحياة كلِّها أعذب وأجمل وأدهش من التوحيد!.

عَــرَّف ربُّك تعالــى بنفســه، فقال في ســورة الإخــلاص: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَــدٌ ﴾ [الإخــلاص: ١] هذا

أوجز تعريف له تعالى، فهو واحدٌ أحدٌ في كلِّ شيء، والعالم كلُّه أفقر ما يكون إلى هذا الواحد الأحد جلَّ في علاه! ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

إذا آمنت بأنَّ الله تعالى واحد لم يبقَ لك من العلم ما ينقصك، وكلُّ علوم الدنيا فرع لهذا المعنى الكبير في حياتك!.

فيا عجباً كيف يُعصى الإلٰه
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كلِّ شيءٍ له آية
تدلُّ على أنَّه واحد
ولله في كلِّ تحريكة
وتسكينة أبداً شاهد

خذ جولة في هذا الكون، ألقِ ببصرك في السماء والأرض والجبال، والأفلاك ستجد بأنَّ كلَّ مشهد يدلُّك على الواحد الأحد تعالى في ملكه وتقدَّس في جلاله، وتعاظم في سلطانه لا إلٰه إلَّا

هو الواحد الأحد! ومن حاول أن يجد خللاً، أو يرى نقصاً أو يشاهد عيباً، فسيجري في فلك ذلك المعنى الكبير ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك: ٤] وثلاث وعشر، وألف مرة. ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٤].

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] الله تعالى وحده فقط الذي يخرجك من ظلام قلبك ومشاعرك وروحك، ينأى بك عن الفوضى، ويقبل بك على حقائق الحياة، فلا تنتظر مخلوقاً يصنع لك شيئاً، فيمّم قلبك إلى الله، فليس إلّا هو!.

كلُّ الطرق التي تسلكها غير طريقه هي في النهاية إلى ظلام وضلال وضياع ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] منهج الله تعالى واحد، فلا تغرُّك المناهج المبثوثة في الأرض، فإنَّما هي ظلام، والطريق إليه تعالى واحد وليس إلّا هو!.

إذا أردت أن تعرف هذا الواحد، فانظر إلى تلك الحيوانات والحشرات والدَّواب، واقرأ تفاصيل هذه الوحدانية المدهشة في كتاب الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وسَلْ نفسك ذلك السؤال العريض:

من الذي هداها ودلَّها على مصالحها، وألقى بها في فلك الحياة؟! من الذي علَّمها كيف تجري في فلك هذا الكون كما يراد منها؟! ردِّد هذا السؤال على نفسك كثيراً، وسترى الحقائق رأي العين ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طـه: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال ﷺ: «**لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» رواه أحمد وصححه الألباني.

قل للجنين يعيش معزولاً بلا
راعٍ ومرعى ما الذي يرعاكا

قل للوليد بكـى وأجهش بالبكا
عنـد الولادة مـا الـذي أبكاكا
وإذا تـرى الثعبان ينفث سـمَّه
فاسـأله من ذا بالسـموم حشاكا
واسـأله كيف تعيش يا ثعبان أو
تحيـا وهـذا السـمُّ يمـلأ فاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت
شـهداً وقل للشـهد من حلّاكا
بل سـائل اللَّبـن المصفَّى كان
بين دمٍ وفرثٍ ما الـذي صفّاكا
وإذا رأيـت الحـيَّ يخـرج من
ثنايـا ميِّتٍ فاسـأله مـن أحياكا
قل للهواء تحسُّه الأيدي ويخفى
عـن عيـون الناس مـن أخفاكا
وإذا رأيت البدر يسـري ناشـراً
أنـواره فاسـأله مـن أسـراكا
وإذا رأيت النخل مشقوقَ النوى
فاسـأله من يا نخل شـقَّ نواكا

وإذا رأيـــت النـــار شـــبَّ لهيبها

فاســـأل لهيب النار مـــن أوراكا

وإذا ترى الجبل الأشـــمَّ مناطحاً

قمم السحاب فسَـــلْه من أرساكا

وإذا ترى صخراً تفجَّر بالمياه فسله

مـــن بـــالـــمـــاء شـــقَّ صفاكا

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى

فـسـلـه مـــن الـــذي أجـراكـا

وإذا رأيت البحر بالملـح الأجاج طغى

فـسـلـه مـــن الـــذي أطـغـاكـا

وإذا رأيـــت الليل يغشـــى داجياً

فاســـأله من يا ليل حـــاك دجاكا

وإذا رأيت الصبح يســـفر ضاحياً

فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]

سورة تعلِّمك هذه الوحدانية، وتدلُّك على الطريق

من أوَّله، وتصنع مشاعرك إلى أقصى مدى، فدعك من الأوهام، وليس في العالم كلِّه حاجة أعظم من حاجتهم إلى معرفة هذا المعنى الكبير!.

سئل ذو النون كيف تنال المعرفة؟ قال: بالنظر في الأمور كيف دبَّرها! وفي المقادير كيف قدَّرها! وفي الخلائق كيف خلقها!.

قال أبو أسامة: وصل إلى عون بن عبد الله أكثر من عشرين ألف درهم، فتصدَّق بها، فقال له أصحابه: لو اعتقدت منها عقدك لولدك، فقال: اعتقدتها لنفسي، واعتقد الله لولدي، قال أبو أسامة: فلم يكن في المسعوديين أحسن حالاً من ولد عون بن عبد الله.

فرق كبير جداً بين رجلين، يصبح الأول منهم وليس همُّه إلّا الله تعالى عملاً وتركاً ونيَّةً، ويصبح الآخر وفي قلبه ألف شريك، هذا هو الفرق الكبير بين التوحيد والشرك، بين الطمأنينة والشتات، هذه هي الوحدة الشعورية التي ترزقك الحياة، وما عدا

ذلك ففوضى تأخذ مداها من قلبك ومشاعرك إلى أقصى مدى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

هل تخيَّلت يوماً من أيامك التي تصبح فيها تريد أن ترضي ربَّك، وترضي في الوقت ذاته رئيسك، وترضي صديقك، ولا تدري ما تصنع في تلك القرارات المتنازعة، أو ذلك اليوم الذي تصبح فيه، وليس في قلبك ومشاعرك سوى الله تعالى ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

إذا عرفت الواحد عرفت كلَّ شيء، وصلح لك كلُّ شيء، وأقبلتَ وليس في مشاعرك سواه تعالى، هو الذي ترغبه، وترهبه، ترجوه وتخافه، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والمخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرٌّ، ولا عطاء ولا منع،

ولا هدى ولا ضلال، ولا نصـر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفـع، ولا عزٌّ ولا ذلٌّ، بـل ربُّه الذي خلقه ورزقه وبصَّره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسَّـه الله بضرٍّ، فلا يكشـفه عنه أحد، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضرُّه إلَّا بإذن الله... إلى أن قال: وجماع ذلك: أنك إذا كنت غير عالم بمصالحك ولا قادر عليها، ولا مريد لها كمـا ينبغي، فغيرك مـن الناس أولى ألَّا يكون عالماً بمصلحتك، ولا قادراً عليها ولا مريداً لها، والله تعالى هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم. اهـ.

وقف رسول الله ﷺ في وجه أهل الجاهلية كلِّهم حين نازعوه على دين الله تعالى، وهو موقن بالواحد الأحد تعالى، فقال: «**هل ترون هذه الشَّمس؟**». قالوا: نعم! فقال: «**ما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تَسْتَشْعِلُوا لي منها شُعْلَة**» رواه البزَّار. اهـ (حسَّنه الألباني)، وقال ﷺ يـوم الهجرة وقريـش علـى رأس الغار:

«ما بالك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»، ووقف أبو بكر رضي الله عنه يوم الردَّة إيماناً بهذا المعنى الكبير ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه!.

ووقف موسى عليه السلام أمام البحر المتلاطم الأمواج وفرعون الطاغية يتوعَّدهم حتى لحق بهم على حافة البحر حينها قال من معه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فقال كلمة التوحيد والرجاء وحسن الظن: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

في لغة الأرض والحساب البشري، وعقول العجلين كلُّ شيءٍ انتهى، فلم يعد هناك سبيلٌ للخلاص! وفي لغة الموحّدين المتوكّلين الصادقين ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

في لغة المحسوسات الماديَّة لم يبقَ للحياة مجال! وفي لغة الإيمان الله أقدر على كلِّ شيء!.

مـــن فضلك ألـــقِ بقلبـــك ومشـــاعرك في هذه اللحظة، وانظر لهذا الموقــف: جيش الطاغوت في مقابل الفئة المستضعفة، وعلى حافة البحر!.

ليس هناك طريـــق آخر حتـــى لمحاولـــة الفرار بجسدك! ليس ثمَّة حلٌّ إلَّا الانتظار للموت لا غير!.

حدِّثني عن حلول الأرض، عن أفكار للخلاص في موقف كهذا، وسأحدِّثك عن الحياة!.

قل لـــي: كم هـــي الطوابير التـــي تصطفُّ عند صنم، وتطـوف على قبر مخلوق مـــن المخلوقين وتسأله وترجوه، وتصنع كلَّ شيءٍ من أجل جثَّة لم تنفع نفسها في شيء، فكيف تنفع غيرها؟!.

كم مرَّة ســـمعت بخبر وظيفة، وأدركت الزحام الكبيـــر الذي ســـيكون عليهـــا، وأوَّل ما جرى في خاطرك، وقام في مشـــاعرك أنَّ من سيمنحك إياها دون المخلوقين هو فلان! ثم ســـافرت له، وأقبلت إليه بقلبك، وفرضت له جزءاً كبيراً من مشـــاعرك

وبقيت تنتظر منَّته وكرمه وجوابه، ولم يلتفت قلبك إلى الواحد الذي يعطي ويمنع، ويبسط ويقدر، ويهب ويصنع كلَّ شيء.

في سنن النسائي وصحَّحه الألباني أنَّ رسول الله ﷺ دخل المسجد فإذا برجل قد قضى صلاته، وهو يتشهَّد فقال: اللهم إنِّي أسألك يا الله بأنَّك الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي إنَّك أنت الغفور الرحيم، فقال ﷺ: «**قد غفر له، قد غفر له، قد غفر له**» ثلاثاً! وما ذلك إلَّا لعظم شأن التوحيد في قلب صاحبه!.

وجَّه الواحد تعالى دعوةً إلى كلِّ المشركين، المتخذين إلٰهاً معه تعالى أن يتواصلوا مع زعمائهم، ويصنعوا لهم شيئاً خلاف ما أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

توحيدك العظيم وإقرارك بـأنَّ الله تعالى واحد يقتضي منك أن ترى أنَّ الله تعالى هو الذي يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويعزُّ ويذلُّ، ويغني ويفقر، فلا رازق ولا معطي ولا محيي ولا مميت سواه تعالى، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

هذه الوحدانية هي التي تحملها كلمة: (لا إلٰه إلَّا الله) أعظم كلمة في تاريخ إنسان، كلمة التوحيد ودليل الإخلاص، ومفزع المنيبين، ومهرع الخائفين في كلِّ وقت وحين.

(لا إلٰه إلَّا الله) تعلِّمك كيف تتعلَّق باسم الله تعالى الواحد، وتؤهِّلك للحياة، وقد قال ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي صحَّحه الألباني: «**إنَّ الله سيخلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مدِّ البصر ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ! فيقول: أفلك عذر! فيقول: لا يا ربِّ، فيقول الله تعالى له: بلى، إنَّ لك عندنا حسنة، فإنَّه لا ظلم عليك اليوم**

فتخرج بطاقة فيها (أشـــهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمداً عبده ورســوله) فيقول: أحضر وزنك، فقال: يا ربِّ! وما هذه البطاقــة مع هذه الســجلات؟ فقــال: إنَّك لا تُظلم! فتوضع السجلات في كفَّة والبطاقة في كفَّة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء»! رواه الترمذي.

لعلَّك عرفت الآن ما معنى لا إلٰه إلَّا الله!.

كلُّ تلك السيئات التي مدَّ بصرك تلاشت أمام توحيدك، ضاعت أمام هذا المعنى الكبير!.

(لا إلٰــه إلَّا الله) هــي التوحيد الذي نــازع فيه المشــركون رســول الله ﷺ أول ما وقف على الصفا فقال لهم قولوا: (لا إلٰــه إلَّا الله) فقال كبير الضلالة حينها: (تبّاً لك ألهذا جمعتنا) وتفرَّقت تلك الجموع عن بكرة أبيها، ورفضت التوحيد جملة وتفصيلاً!.

(لا إلٰــه إلَّا الله) هــي التوحيد الذي بقــي عليه النبي ﷺ أكثر من عشر سنوات لا يقول لتلك الجاهلية سوى هذه الكلمة، وهي الكلمة التي أقضَّت مضاجع

الكفــرة في تلك الحقبة مــن الزمن، فــردَّدوا جميعاً ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

(لا إلٰه إلَّا الله) تلك الكلمة التي اســتحقَّت من رســول الله ﷺ تلك الجهود الضخمــة والتضحيات الكبرى والصمود أمام المحــن والأزمات، فحوصر من أجلها، وطرد في سبيلها، وسالت الدماء من أجل فرض واقعهــا، وحين كتــب الله تعالى لهــا القبول صنعت ربيعاً لا تتصحَّر أرضه ما بقيت الحياة.

(لا إلٰــه إلَّا الله) هي التي إذا قامــت في قلبك عرفت من الذي يســتحقُّ عملــك وجهدك وقلبك ومشاعرك، وأدركت أنَّه ملاذك ونصيرك وعونك في كلِّ شيءٍ، وتيقَّنت أنَّ به كلَّ شيء، وبدونه لا شيء.

إذا علمت أنَّ الله واحد تصاغر الناس في قلبك ومشــاعرك وأدركت أنَّهــم لا يغنون عنك شــيئاً، وأقبلت علــى الله تعالــى وأعطيته وقتــك وفكرك وقلبك ومشــاعرك، وجرت الحياة في واقعك إلى أقصى مدى. وما حاجة قلبك في هذه المساحة إلى

شـــيءٍ حاجته إلى: «**واعلـــم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لـــم يكن ليصيبك**»، وحاجته إلى: «**واعلم أنّ الأمة لـــو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله تعالى لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلَّا بشـــيءٍ قد كتبه الله تعالـــى عليك**» وإلـــى متى؟! «**رفعت الأقلام وجفَّت الصحف**» رواه الترمذي وصححه شعيب الأرناؤوط.

وحدانية الله تعالى تقذف في قلبك أنَّه هو الذي يُمرض، وهو في الوقت ذاته الذي يشفي، هو الذي يحيي وهو الذي يميت، هو الذي يعطي، وهو الذي يمنع، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وحدانية الله تعالى تعلِّمك درســاً في اليقين أنَّ رزقك الـــذي كتبــه الله تعالى لك فـــي بطن أمك ســـيأتيك في الوقت ذاته الذي قرَّره الله تعالى لك، ولن يسبقك عليه أحد، ولو نازعك فيه من نازعك ألف مرَّة.

أحوج ما نكون إلى التوحيد، وإذا قام في قلوبنا قام كلُّ شيء، فسَلِمَتْ حينها أرواحنا من الشتات، ومشاعرنا من القلق، وأفكارنا من الفوضى، وأصبح طريقنا واحداً ليس غيره في الحياة.



الـرَّحـيـم

فقدت امرأة صبيًّا لها في السبي، فتاهت بها الأماني وهي تبحث عنه، انتفش شعرها، وتحدَّر الدمع على خدَّيها، وأجهش قلبها بالفقد، وأخذت تجري في كلِّ مكان، ولم يبقَ لها من الحياة شيء، ورسول الله ﷺ واقف مع جملة من صحابته ينظر إليها، فإذا بها تلقى ولدها، فتأخذه وتضمُّه إلى صدرها، وتلقمه ثديها، ويهدأ روعها، وتعود لها الحياة من جديد، فإذا بالنبي ﷺ يقول لصحابته: «**أتظنُّون بأنَّ هذه طارحة ولدها في النار؟**» قالوا: لا والله يا رسول الله! فقال ﷺ: «**لله أرحم بكم من هذه بولدها**»! رواه البخاري.

هذا هو ربُّك، هذا هو الرحمٰن الرحيم، هذا الذي تبلغ رحمته بك أبلغ من رحمة أمٍّ ضاع منها كلُّ شيءٍ ثم وجدته! وقد قال تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]!.

(كلَّ شيء) وليس شيءٌ عن شيء!.

حتى رسـوله ﷺ الذي بعثه الله إليك رسـول رحمة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكتابه الذي أنزله عليه كتاب رحمة ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

فرسوله ﷺ رحمة، وكتابه رحمة، ورحمته وسعت كلَّ شيء! فماذا بقي لك! حدِّثني عن فصلٍ واحدٍ في حياتك من فصول الحرمان، وسأحدِّثك عن ألف فصلٍ من فصول الرحمة!.

تعالَ معي إلى أخصب الفصول معرفةً لرحمة الله تعالى، حين يهب الله تعالى رحمته للكافر، للملحد، للذي عاش عدوّاً لدينه ومنهجه وصراطه، للذي انتقص ربَّه، واتَّهمه، وحارب أولياءه: يقول الله تعالى لهم بعد كلِّ هذه المعاني: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

يُغفر لهم كفرهم وإلحادهم وظلمهم وجورهم مقابل (إن ينتهوا) فقط. كم مرَّة أخطأت في حقِّ ربِّك! وأسأت إليه! كم مرَّة تخطيت على حرماته، وتجاوزت

على شــرعه ومنهجه! كم مرَّة أقفلت بابك، وسترت نفسك ممّن حولك، وغفلت عن ربّك الذي يراك! كم مرَّة تجرَّأت على معصيته، وعبثت بشريعته، وصنعت ما لا يليق بجنابه تعالى! ومــع كلِّ هذا إنْ عدت إلى ربّك قبلك، وإنْ أقبلت لم يردَّك، وإنْ أحســنت الظنَّ جاءك من ربّــك ما لم يكن لك في الحســبان ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وأنت أعرف من هم المسرفون!.

من فضلك أعد قراءة هذا المشهد حتى لا يمرَّ في حياتــك ككثير من المشــاهد التي تمــرُّ دون وعي وإدراك: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يخاطب الله تعالى هنا المسرفين في المعصية، الموغليــن فــي الحرمــان، العابثيــن بالحرمات، الصانعين لكلِّ سوءٍ، يقول لكلِّ هؤلاء: (يا عبادي!).

(يا عبادي)! مهما صنعتــم ولطَّختكم المعاصي، وأوردتكم موارد السوء، وســوء التوفيق لن تخرجوا بهذا من عبوديتكم لربِّكم إذا كنتم محقِّقين للتوحيد!.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

لا تيأسوا من رحمة الله تعالى!.

لا تقنطوا من فضله ورزقه!.

عودوا، تُغفر ذنوبكم، وتزول خطاياكم، وتنتهي قصَّة الحرمان من حياتكم، وتعودوا إلى الله تعالى من جديد!.

لا تحدِّثني هذه اللحظة عن ذنبك، وخطيئتك، وإسرافك! حدِّثني عن توبتك وعودتك وصدقك في الخروج من ذلك الظلام إلى نور الله تعالى، وسأحدِّثك عن الحياة بتفاصيلها الممتعة لك في مستقبل الأيام ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

لا يُعرف في التاريخ كلِّه أشدُّ كفراً من فرعون، وقد نازع الله تعالى في ربوبيَّته وألوهيَّته فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]،

ثم بغى وتكبَّر وتجبَّر، فشـرَّد أولياء الله تعالى، وقتَّل الفئات المستضعفة، وعـاش طاغياً متكبِّـراً جبَّاراً لا يرى إلَّا نفسه، وقصَّته في البغي والظلم والطغيان لا يجهلها أحد.

طارَدَ موسـى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وحين لحق بهـم وتبعهـم في خضـمِّ البحر غـرق، وأوَّل ما اسـتنجد بربِّه تبارك وتعالى قائلاً: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠]، فقـال جبريل: يا محمد فلو رأيتني، وأنا آخذ من حال البحر، فأدسُّه في فِيْه مخافة أن تدركه رحمة الله تعالى.

وإنَّمـا صنع جبريل عليه السلام ذلـك لمعرفته برحمة الله تعالى، وعظيم عفوه، وكمال حلمه، وأنَّ ذنوب الإنسان مهما بلغت لا تحول بينه وبين مغفرة ربِّه تبارك وتعالى ورحمته إن جاء تائباً معتذراً! وهو مشـهد يدلُّك على عظيم عفو الله تعالى، وكمال رحمته ورأفته.

تخرج مسـافراً، فيتدفَّق الدمع من عين صديقك، وتبكي أمُّك زمنـاً على وداعك، وفي مـرَّات كثيرة

لا تستطيع أن تودِّع من تحبُّ لأنَّك لا تستطيع أن ترى دموعه، وهي تنحدر على وجنتيه لفقدك، وتهزمك مشاعر الحبِّ ألف مرَّة في تلك المواقف.

كم مرَّة أخذت حقيبتك، وركبت سيارتك، وفاضت عيناك بالدموع، وبكى منك كلُّ شيء وأنت تترك أهلك، وربوع حيِّك، ورفاق الطريق!.

كم مرَّة خانتك عيناك عند الوداع! وكم مرَّة هزمتك دموعك أمام طفلك الذي يمسك بثوبك، وطفلتك التي تبكي وتصرخ وهي ترى حقيبتك في يدك، وقد شعرت بغيابك عنها تعبيراً منها عن أثر فقدك في الأيام القادمة من العمر!.

ماذا لو قيل لك: إنَّ كلَّ هذه المشاهد المدهشة التي تراها إنَّما هي جزء من رحمة الله تعالى بك في مشاهد يوم القيامة. هذه المشاهد كلُّها رحمة واحدة من أصل مئة رحمة تنتظرك في مشاهد يوم القيامة.

قال ﷺ: «**إنَّ لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها،**

وأخَّر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة» (رواه مسلم).

ماذا لو قيل لـــك: إنَّ الله تعالى يُخرج يوم القيامة من النار من كان في قلبه مثقـــال حبَّة من خردلٍ من إيمان، لا يبقى فيها كلٌّ من فـــي قلبه أصل التوحيد، ولو عاش عمره كلَّه في الضلال والبغي والعدوان!.

من فضـــل الله تعالى ورحمته لـــك أنَّه دلَّك على الطريق، ورحمـــك، فاختار لك الإســـلام، ورحمك فأخرجك من الظـــلام، كنت ضالاً فهـــداك، وجائعاً فأغناك، وطريداً شريداً فآواك!.

كم أعداد الذين لا يعرفون الإسلام! وكم هم الذين غارقون في الشـــرك! وكم هم الذين يتيهون في أودية الشـــتات والضـــلال، وأنت كشـــف الله تعالـــى عنك الضلال، وأوردك للهداية، ومنَّ عليك بالإسلام، وشرح لك صدرك حتى أجرى فيـــه نوره وهدايته ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢]!.

كم من إنسانٍ بقي على معصية ربِّه تبارك وتعالى، والعبث بمنهجه، والتهاون في أمره، والتطاول على شريعته زمناً طويلاً، وربُّه يمهله، يتمادى في الضياع والضلال والغواية وربُّه يستره، يصنع كلَّ شيءٍ، والله تعالى يمدُّ له ويمهله حتى عاد في النهاية، فألبسه الله تعالى حلل الجمال بهذه التوبة، وأقبل به على الخيرات.

وفي الترمذي وصحَّحه الألباني من حديث أنس بن مالك قال ﷺ: قال الله تعالى: «**يا ابن آدم إنَّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنَّك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة**»!.

المدهش حقاً أنّ تاريخ المذنب، وشرك المشرك، وعدوان الظالم، وبغي المعتدي، كلُّها بالتوبة تعود حسنات قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]!.

كلُّ تلك الخطايا والسيئات وحوادث السوء ووقائع الضلال، كلُّها تعود بالتوبة إلى حسنات جديدة، يكاثر بها في حسنات التائبين المقبلين على الله تعالى من جديد.

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**أسرف رجل على نفسه، فلمَّا حضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذِّبني عذاباً ما عذَّبه به أحداً، قال ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: أدِّي ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك، يا رب ـ أو قال مخافتك ـ**» فغفر له بذلك!.

اقرأ هذا الحديث بقلبك ومشاعرك!.

تأمَّله مراراً حتى تعرف قدر رحمة ربك!.

هذا رجل أسرف على نفسه، صنع كلَّ شيء، لم يبقِ مجالاً إلَّا وضع فيه ما يغضب ربَّه تبارك وتعالى! ثم زاد على ذلك، فشكَّك في قدرة الله تعالى على إعادة جمعه وتعذيبه، ومع ذلك تأمَّل هذه النهاية التي آل إليها مع كلِّ ما صنع: فغفر له بذلك!.

ونقل لنا رسـول الله ﷺ حديثاً مدهشاً في رحمته تعالى وشفقته بعبده وحلمه عليه، فقال: «**لله أشدُّ فرحاً بتوبـة عبده حين يتـوب إليه، من أحدكـم كان على راحلته بأرض فلاة. فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلِّها، قد أيس من راحلتـه، فبينا هو كذلك إذا هو بهـا، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شـدَّة الفـرح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح**»، (رواه مسلم).

فرح الله تعالى بتوبتك وإقبالك عليه، وتخلُّصك من أمراضك وسوء ظنونك، ومتابعة شهواتك أعظم عنده تعالى من فرح ذلك الإنسـان الذي ظلَّ ينتظر الموت، ثم عادت له الحياة، فقال من شـدَّة الفرح: (اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك)! أخطأ من شدَّة الفرح!.

قل لي: من أنت في ملك الله تعالى؟!.

حدِّثني: مـاذا تمثِّل توبتـك لله تعالى! ومع كلِّ ذلك يبلغ فرح الله تعالى بعودتك وإقبالك ونجاتك أعظم من فـرح ذلك الذي وجد دابَّتـه بعد أن كان ينتظر الموت!.

تأمّل في هذه الصورة، وتأمَّل في المقابل في قوله تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»! رواه مسلم، ثم قارن بين الحديثين، وحينها تعرف كلَّ شيء!.

من رحمة الله تعالى بك أنَّه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل! أتدري إلى متى؟ حتى تطلع الشمس من مغربها!.

تعالَ معي إلى هذا الموقف، وانظر متأمِّلاً في أحداثه، ثم قف على النهاية بنفسك لتعرف رحمة الله تعالى:

في صحيح مسلم: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فيما يحكي عن ربّه ﷻ، قال: «**أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أنَّ له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أنَّ له ربّاً يغفر**

الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له ربَّاً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك».

كم مرّة حاول الشيطان أن يجعل بينك وبين ربّك خندقاً! وكم جهد على أن يصوّر لك أنَّك خرجت من إيمانك، ولا سبيل إلى العودة من جديد إلى ربّك!.

ربُّك تعالى أعظم من كلِّ ما يجري من الصور في ذهنك.

فما بالك لو قرأت هذا المعنى الكبير:

قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**» رواه مسلم.

قبل أن تفكَّ قيود قدمك من اليأس، فكَّ قيود مشاعرك من الحرمان من معرفة ربّك تبارك وتعالى.

في البخاري قال ﷺ: «**إنَّ الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنَّه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته**».

تخيّل وأنت في مواقف القيامة، حين يجري سؤالك، وعتابك، وربُّك يضع عليك كنفه، فلا يراك أحد من العالمين، يسترك فلا يفضحك، ويقرِّرك بذنوبك، ثم يقول لك في الختام: «**سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته**».

السؤال الكبير: هل عرفت ربَّك؟ هل أدركت الآن ماذا ينتظرك بين يديه؟ هل تيقَّنت رحمته وعفوه وحلمه؟.

بقي أن تستيقظ من نومك، وتبادر بعملك، وتلحق بركب هذه الأفراح يوماً من أيام عمرك.



الملك

في البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنَّا نجد أنَّ الله تعالى يجعل السمٰوات على إصبع والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لهذا الخبر، ثم قرأ ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

سبحانك يا ربّ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾ [الحشر: ٢٣] الخلق خلقه، والكون كونه، وما من مخلوق إلَّا وناصيته بيده، يتصرَّف فيه كيف يشاء! كلُّ ملوك الدنيا تحت قهره وتصرُّفه، هو الذي شاء لهم ذلك، ولو لم يشأ لما كان من ذلك شيئاً ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن

تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

أعطى فرعون مُلْك مصر، وملَّكه كلَّ شـيء، فرفع رأسه متكبراً ظالماً ناسـياً ما أعطاه الله تعالى، ومنكراً نعمه قائلاً: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾، ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨] فألقاه في البحر حتى شرق، فقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠] بعد فوات الأوان.

قال متكبِّراً مسـتعلياً ظالمـاً: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف: ٥١] فأجراها الملك تعالى من فوق رأسه!.

أعطى قارون أموالاً وملَّكه خزائن الدنيا، ومنحه كلَّ شيءٍ حتى كانت مفاتيح الخزائن تحتاج إلى عصبة من الرجال لنقْلها فضلاً عن الخزائن ذاتها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ ﴾ [القصص: ٧٦] ولكنّه ظنَّ أنّه كلُّ شيء، فقال متبختراً ناسياً أو متناسياً:

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ﴾ [القصص: ٧٨] فلم يتكلّف الملك في شيءٍ، شقّ أرضه التي يجلس عليها، وألقاه في ظلامها، وجعله يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ ﴾ [القصص: ٨١]! هذه نتيجة طبيعية للذي لا يدري أنّه يتعامل مع الملك!.

تمرّد النمرود ملك بابل على الملك، وظنّ بأنّه مَلِكُ كلِّ شيء، خاصم في ربّه تعالى، ونازع في ملكه، وادّعى أنّه يحيي ويميت، ويصنع كلّ شيء ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وأقبل رجل ذات يوم على قرية خاوية، فقال: ﴿ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فكان الجواب درساً تقرأه الأجيال إلى يوم القيامة ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ثم دعاه للنظر

والتأمُّل في أقرب ما يكون إليه: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] لم يتغيَّر منه شيء، مئة عام، وهو باقٍ على ما تركته عليه! ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩]!.

أراد الخليل إبراهيم عليه السلام مزيداً من الإيمان واليقين لقلبه، أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فماذا كان جواب الملك؟ ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] قطِّعهنَّ، ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] سبحانك ما أعظمك!.

كان فرعون يدير شأن مصر، ويصنع فيها كلَّ شيء حتى قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ وبلغته رؤيا أنَّ ملكه سينتهي على يد غلام من غلمان بني إسرائيل، فأصدر الملك أمراً عاجلاً، وكان هو أقصى ما يملك، كل من

ولدت غلاماً فاقتلوه! ظنَّ ملـــك الدنيا أنّه قادر على كلِّ شيءٍ وفاته أنَّ الذي يدير الدنيا كلَّها هو الملك! ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧].

وكان هذا الأمرُ واحـــداً من الحلـــول العادية جدّاً، خذي تابوتاً، وضعي فيه حبـــلاً ثم إذا أقبل عليك جنود هذا الطاغية ارميه في اليم، فـــإذا ما خرجوا تناوليه من جديد! ولكن الله تعالى أراد أمراً أبلغ من هذا ألف مرَّة!.

أراد أن ينقل الأمر من تابـــوت يُربط ثم يعاد لها مرة أخرى إلى أبعد من هـــذه الصورة بألف مرَّة! فكَّ قيده وأطلقه، وأمر ذلك التابوت الخشبي أن يذهب به إلى بيت عدوِّه! وكأنَّه يقول له: لا تجهد نفسك، ولا تبعثر همومك، ولا تشـــقي جنـــدك، صاحبك الذي تبحث عنه سيأتيك إلى بيتك، وستتكلَّف أنت تربيته وتأهيله ليكون قـــادراً على مواجهتك في مســـتقبل الأيام ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر: ٢٣]!.

وصل التابوت وفيه غلام من غلمان بني إسرائيل، فيه طفل من الذيـــن جرت عليهـــم رؤى المنام، فما

مصير ذلك الطفل، وقد ألقاه التابوت في بيت الطاغية الذي يبحث عنه! قل لي.. حدِّثني عن قلب أمه، وهي ترى طفلها بيد عدوّه، وفي بيت من يبحث عنه ليقتله! وأراد فرعون أمراً، وأراد الله تعالى غيره، ألقى الله تعالى حبَّ هذا الغلام المتوعَّد بالقتل في قلب زوجه ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] وكم من قرار جاء من داخل البيوت!.

كم هو الفرق بين موسى وهو في بيت أمه، وفي لجج أمواج البحار، وبين ما هو فيه الآن في قلب زوج فرعون! كم هو الفرق بين طفل ولدته أمه، وكان قتله مسألة وقت، وبين ما هو فيه الآن من قصور المُلك! أمس كان يطارد ليُقتل، واليوم يُحتفى به في القصور وبلاط الملك!.

بقي السؤال الكبير: كيف يعود إلى أمّه؟ كيف يتحقَّق قول الله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]؟ وقد وصل إلى عدوِّه، وهو في قبضته وبين يديه، ولا سبيل إلى أمٍّ لم يبقَ في قلبها شيء من أحوال الدنيا كلِّها إلَّا هموم هذا الصبي!.

أجرى الله تعالى سبباً آخر ليحين موعد العودة من جديد، ومن أوسع الأبواب ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ [القصص: ١٣] لِمَ يا رب؟! ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]! ومن قرأ بدايات القصّة ورؤيا فرعون حكم أنَّه لا سبيل لحياة أحدٍ، ولكن الله تعالى أجرى أمره كما يريد.

لقد بلغ العالم درجةً جزم فيها بأنَّه يملك كلَّ شيء، ويصنع كلَّ شيء، ويدير في اللحظة ذاتها كلَّ شيء، وصل للفضاء، وأعدَّ طائرات تقاتل دون طيار، وأصبح الإنسان العادي في هذا الزمان يتسوّق في العالم في لحظة، ويأخذ منه ما يشاء في لحظة، وتجاوز الإنسان مرحلة الظنِّ أنَّه يملك كلَّ شيءٍ، وأصبح جازماً بكلِّ شيءٍ.

وخرج جملة من زعماء العالم يقولون: لم يبقَ على الإنسان شيء إلَّا فعله، ولم يبقَ إلَّا أن يقال لا إله للكون سوى الإنسان! ثم يجري الله تعالى

عليهم ملكه وسلطانه، فيسلّط اليوم على العالم كلّه دون استثناء وباء (كورونا).

فيروس لا تراه العين المجرَّدة، يقف العالم كلُّه عاجزاً عن محاصرة تمدُّده فضلاً عن إيقافه، غُلِّقت على إثره الدراسة في كلّ دول العالم، وأقفلت الأسواق، ومنع من الصلاة في المساجد كلّها جمعة وجماعة، وتوقفت رحلات الطيران بين بلاد العالم، وجرى فرض حصار وحجر على الناس، ومنعوا من الخروج محاولةً في تخفيف انتشاره من خلال العدوى، وما زالت الأعداد تزيد بالمئات، وحصل للناس من الحرج والضيق، وترتَّب على ذلك من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية فوق ما يتصوَّر الإنسان، وكلُّ ذلك في لحظة.

تحوَّل الأمن في لحظة إلى خوف، والسَّعة إلى ضيق، والفرج إلى شدَّة، والمال إلى فقر، والحياة إلى موت، وجرى في الكون ما لم يكن في حسبان بشر، وها هي إحدى دول الكفر، وقد انتشر الموت فيها من أثر المرض تقول: انتهت حلول الأرض، ولم يبقَ

إلَّا حلول السماء! ورُفع الأذان في دول الغرب، وتزاحموا من جديد على المراكز الإسلامية يريدون أن يعرفوا الإسلام، حتى يعرف كلُّ العالم أن الملك هو الله تعالى. ولا ملك سواه، وأنَّ الكون في قبضته تعالى، وأنَّه تعالى يُجري ما يشاء، كيف يشاء، في الزمان والمكان الذي يشاء.

هذا الملك جلَّ في علاه، إذا أعطى أدهش، وإذا منع أفقر، لا يغفر ذنبك سواه، ولا يتوب عليك غيره، ولا يرزقك أحد دونه، كلُّ مقاليد السمٰوات والأرض بيده ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩] يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويخفض آخرين ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ينزلُ كلَّ ليلة في الثلث الأخير من الليل، فيهب من لطفه ورحمته وتوبته على عباده ما يشاء.

في لحظة ما: كم من ذنبٍ يُغفر! وكم من عيبٍ يُستر! وكم من مرضٍ يُشفى! وكم من فقير يَغنى! وكلُّ العالم يقف مشدوهاً أمام هذا الوعد الكبير (**هل من سائلٍ فأعطيه!!**).

من يتصوَّر أنَّ لحظة واحدة كافية لشفاء مرضك، وعلاج ضعفك، وسداد دينك، وصلاح بيتك، وتحقيق أمانيك (**هل من مستغفرٍ، فأغفر له؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من سائلٍ، فأعطيه؟**) ماذا لو أنَّك قمت تلك اللحظة ورفعت يديك موقناً بوعد الله تعالى!.

في صحيح مسلم من حديث أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنَّه قال: «**يا عبادي إنِّي حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا، يا عبادي كلُّكم ضالٌّ إلَّا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلُّكم جائع، إلَّا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلُّكم عارٍ، إلَّا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنَّكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر**

قلب رجلٍ واحدٍ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلَّا نفسه» وكان من تعظيم أبي إدريس الخولاني لهذا الحديث أنَّه إذا حدَّث به جثا على ركبتيه. وهو نوع من الفقه لجناب الله تعالى لا يفوت على عاقل! والله المستعان!.

أما إنَّك لو قرأت هذا الحديث بقلبك ومشاعرك لولدت الحياة في قلبك ألف مرة!.

أتظن أنَّ لك حاجة عند ربِّك لا يعطيك! أو ثمَّة أمل يتوقف عليه مستقبلك لا يمنحك! أو ترجو شيئاً وتشتاق إليه، والله تعالى يمنعك!.

يا هذا آمن أنَّ عند الملك كلَّ شيء، وسيحين موعدها في حياتك، ولو بعد حين!.



الـهــادي

كلّما رأيت حيواناً وطيراً وحشرةً أدركت ما معنى الهادي، وتذكَّرت قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

كلٌّ يبحث عن عيشه بما أودع الله تعالى فيه، وبما هداه إليه، هذا على بطنه، وذاك على قدميه، وثالث على أربع، وصور تجري في قلبك بألف حكاية، وتتساءل كيف عَرَفت هذه الدواب ما يصلح لها، وما لا يصلح! كيف تهتدي إلى عيشها وسكنها! كيف تتَّقي من حرِّ الشمس! وكيف تتوارى من البرد، فيأتي لك كتاب الله تعالى بالحكاية ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

يخرج مولود من بطن أمه، وأوَّل ما يقع على ثديها يألفه، ويجد فيه كلَّ شيءٍ، يعيش ملاصقاً لأمِّه زمناً طويلاً، فيألفها ويهتدي إليها، وتبقى عنده كلَّ شيء، وتجري أحداث أشواقها في قلبه بألف حكاية، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ترى النحلة، تلك الحشرة وهي تتَّخذ من الجبال بيوتاً، ثم تسلك سبل ربِّها مذلَّلة لها، لا يستعصي عليها منها شيء، تذهب وتعود، وتصنع تلك البيوت المحكمة بأشكالها المدهشة، وتتساءل من الذي علَّمها! من الذي دلَّها! من الذي أوحى إليها بهذا الجمال المدهش في الحياة ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

ترغب في زواج امرأة، وتشتاق إليها، وتدفع لها عمرك، وتسعى بكلِّ ممكن لزواجها، والله تعالى يصرفك عنها، ويضع في طريقك ألف عقبة، وتظنُّ حينها أنَّ الله تعالى لا يحبُّك، ولا يريد لك شيئاً، وتمضي السنون، وترى الحقائق رأي العين، وتسجد لله تعالى ألف سجدة شكر، وتعلم حينها أنَّ الذي صرفك عنها يحبُّك، ويريد لك الحياة، وتبقى زمناً من عمرك تتعجَّب.

وفي المقابل تتمنَّى امرأة زواج رجل، وتدفع في سبيل ذلك كلَّ شيء، ولا يجمع الله تعالى بينهما، وتكتشف في النهاية بعد سنوات أنَّ قدر الله تعالى ألطف لها من ذلك الزواج بألف مرَّة.

قال أحدهم ذات مرّة: صُدمت ليلة وضعت زوجي مولودنا الجديد، رغم كلَ صور الفرح التي طافت بمشاعري تلك اللحظة وأدها الطبيب في لحظة حين قال لي: ولدك أعمى لا يرى! قَبّلته وفي قلبي من الأسى والظلام ما تنوء به مشاعري في تلك اللحظة، وطرق خاطري ألف سؤال: ماذا أصنع به؟ كيف أتعامل معه؟ حين يكبر كيف سيكون؟ وظلّ يكبر، وتكبر معه همومي ومشكلاتي حتى بلغ سنَّ دور التحفيظ.

كنت مرّة أنا الذي أوصله، وأخرى أخوه، وثالثة أحد أبناء الجيران، ورابعة يبعث له المعلم بمن يأتي به، وما كان في خاطري يوماً أنَّ هذا الأعمى هو الذي سيصنع لي الحياة، ويطوف بي مدارج التكريم، ويلبسني حلل المجد من خلال كتاب الله تعالى، أصبح الطالب الأول في ذلك المسجد، وتربَّع على صفوف المتفوقين على مستوى الجمعية زمناً، ثم كان الأول في المسابقات المحلية، ولأوّل مرّةٍ في عمري كلّه أحضر مشاهد للتكريم، وأقف في صفوف الناجحين، وأحيا من جديد مع ذلك المولود! ولولا

فضــل الله تعالى لي به لما عرفت مــن أنا! فضلاً أن أعلو على مدارج التكريم!.

يتنــازع في قلبــك قــراران، ويأخــذان حقّهما من الدراسة والاستشارة، وتبقى ضالاًّ عن الأفضل والأحسن والأسلم عاقبة، حتى يهديك الله تعالى لذلك في النهاية.

تقع في مشــكلة ولا تدري ما المخــرج؟ ما القرار الأقرب والألطف؟ كيف؟ ومن؟ وأين؟ ومتى؟ وأسئلة كثيرة جداً تفيض على مشاعرك تلك اللحظة التي تحتاج فيها إلى قرارٍ، وتبقى الدراسات واستشراف المستقبل، وتوقُّع الأفضل كلها مجرد توقعــات، وإذا غابت عنك هداية الله تعالى غاب عنك كلُّ شيء، وتلازمك الحيرة التي تعبث بمشاعرك وتصنع لك الأرق حتى يهديك الله تعالى لرأيٍ يحقّق لك في النهاية كلَّ شيء.

قرارات دراستك، ووظيفتك، وزواجك، وقرارات اســتثماراتك وتجاراتك، وقرارات بنــاء بيتك، وما يتعلّق بأسرتك تظلُّ فيها حائراً لا تدري ما تصنع فيها حتى يمنَّ الله تعالى عليك بهدايــة، ويرزقك توفيقاً، ويدلّك علــى الطريق، فتجــري أحداثهــا بعد ذلك

بأعظم ما كنت تتوقَّع في حياتك كلِّها، ولهذا كلّه دلّنا رسول الله ﷺ إلى دعاء الاستخارة.

قال جابر رضي الله عنه كان النبي ﷺ يعلِّمنا الاستخارة في الأمور كلِّها كالسورة من القرآن: «**إذا همَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين ثم ليقل: اللهمَّ إنِّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنَّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علَّام الغيوب، اللَّهم إن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر خيرٌ لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري،** (أو قال: عاجل أمري وآجله) **فاقدره لي، وإن كنت تعلم أنَّ هذا الأمر شرٌّ لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري** (أو قال: عاجل أمري وآجله) **فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضِّني به**» رواه البخاري.

وإذا تأملت هذا الدعاء، وجدت أنَّك تتخلَّص من كلِّ قراراتك، وخياراتك، وتسأل الله تعالى ملحَّاً أن يهديك ويدلَّك على الطريق، وهذه هداية، وتسأله كذلك هداية أخرى أن يرضِّيك بما اختار لك، وهذه هداية أخرى، وكم من إنسانٍ يعرف الحق، ويُرشد

إلى الطريق، ويُصرف عن الهداية إليه، ولا يعان عليه، فيبقى محروماً من هداية الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: يسأله من في السمٰوات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمدُّ هؤلاء وهؤلاء وأبغض خلقه إليه عدوه إبليس ـ لعنه الله ـ ومع هذا، فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ومتَّعه بها، ولكن لمَّا لم تكن عوناً له على مرضاته كانت زيادة في شقاوته وبعده عن الله تعالى وطرده عنه، فليتأمَّل العاقل إذاً في نفسه، وفي غيره، وليعلم أنَّ إجابة الله تعالى لسائليه ليست لكرامة كلِّ سائل فقط، بل يسأله عبده الحاجة، فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤه له من هوانه عليه وسقوطه من عينيه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبَّته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنَّما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ويعامله بلطف، فيظنُّ بجهله أنَّ الله تعالى لا يجيبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنَّه بربِّه.

ثم قال: فاحذر كلَّ الحذر أن تسأله شيئاً معيَّناً خيره، وعاقبته مغيَّبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدّاً،

فعلّقه على شــرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن اســتخارة باللسان بلا معرفة، بل اســتخارة مَنْ لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، بل إن أوكل إلى نفسه هلك كل الهلاك وانفرط عليه أمره. اهـ.

كم من إنســانٍ يبحث عــن وظيفــة، ولا يعرف الأصلح والأحسن، والذي يعود عليه في دينه ودنياه بالخير، فيظــل تائهاً لا يدري ما في قــدر الله تعالى حتى يهديه الله تعالى ويدلّه على ذلك الخيار، فيرى فواتح التوفيق تتهادى بين يديه في النهايات.

تأتي لتخصُّص أو مشروع أو فكرة وقضية تريد أن تقضي فيها ما بقي من عمرك، فيأتيك ألف ســؤال، ويستحضر عقلك ألف مشــكلة، وتتزاحم بين يديك كثير من الأسئلة والاستفهامات قبل اتخاذ ذلك القرار، ولا يبقى عليك شيء حينها سوى هداية الله تعالى!.

امرأة يخطبها خمسة أو عشرة من الرجال، وتدرس كلَّ الخيارات المتاحة، وتبذل وســعها في الســؤال

والتحرّي والانتظار، وتبقى حائرة لا تدري ما تصنع، وأي قرار تتخذ، وماذا تفعل في أعظم قرارات حياتها؟ وتكون حينها أحوج شيء إلى هداية الله تعالى، فإنْ ظفرت بها عاشت ما بقي من عمرها في ظلال ذلك التوفيق، وإلّا مع كلِّ هذه الخيارات قد تكون أشأم امرأة في حياتها من خلال ذلك القرار!.

ترى في واقعك من جعل التجارة هدفاً، والمال مشروعاً، وله عشرات السنوات، وهو يكدُّ في الطريق يربح تارة، ويخسر تارات، يصل مرَّة إلى القمة، ثم يسقط في مرّات إلى أن يدخل السجون! ولم يجد طريقاً إلى الأحلام التي يرقبها بعد، وآخر وصل لتلك الأماني من خلال تجربة عادية، وزمن قصير لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وأصبح تاجراً مرموقاً يشار إليه بالبنان.

ترى تاجراً بلغت أمواله حديث العالم من حوله، ولكنّه عاجز أن يوفِّر جهاز تكييف لمسجد حيّه، أو ثلاجة، أو يعين أرملة، أو يكفل يتيماً، وآخر رزقه الله تعالى بعض المال وشيئاً منه، فإذا به يتكفل بكلِّ شيء في المسجد، ويبني قصوراً من أمل لمن حوله

من الأرامل، ويكفل أيتاماً، ولا تجد دعوة خير إلَّا وهو قاعدتها وذروة سنامها في كلِّ شيء.

الله تعالى هو الهادي وحده!.

هذه امرأة عادية في كلِّ شيءٍ: في جمالها، وفي تعليمها، وأسرتها وتربيتها ونشأتها، تزوَّجت مبكِّراً، وأنجبت أبناء، وجرت عليها ظلال الحياة، ووجدت النعيم من ألف طريق، وأخرى مع كلِّ مواصفات جمالها وتعليمها وعقلها ما زالت لم تتزوَّج، أو تزوَّجت وطُلِّقت، أو لم تجد بريق الحياة الذي تحلم به بعد!.

كم مرَّة أقامك الأذان من مكانك؟ وقمت تتوضأ وقلت في نهاية وضوئك: (أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله) وفُتِحَتْ لك أبواب السَّماء كلُّها في تلك اللحظة رضاً بما تصنع.

انتهى وضوؤك. وانتهت في اللحظة ذاتها كلُّ ذنوبك، قال ﷺ: «**إذا توضَّأ العبد المسلم** ـ أو المؤمن ـ **فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء** ـ أو مع آخر قطر الماء ـ، **فإذا**

غسل يديه خرج من يديه كلُّ خطيئةٍ كان بطشتها يداه مع الماء ـ أو مع آخر قطر الماء ـ، **فإذا غســل رجليه خرجت كلُّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء** ـ أو مع آخر قطر الماء ـ **حتى يخرج نقيّاً من الذنوب**» (رواه مسلم).

ثم بدأت رحلتك الإيمانية إلى بيت من بيوت الله تعالى، وكلُّ خطوة ترفعها تضع ســيئة، وكلُّ خطوة تضعها ترفع حسنة، ويراك الله تعالى في تلك اللحظة، فيتبشــبش إليك كما يتبشــبش أهل الغائب بغائبهم العائد من سفر طالت أيامه (ابن حبان وصحّحه الألباني).

ثم تصلي لربِّك، فتجري لــك فصول الحياة كما قال ﷺ: «**لن يلج النار أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها**» (رواه مسلم).

هل فكَّرت في هذه الرحلة الإيمانية التي تصحبك في كلِّ يوم وليلة!؟.

أما سألت نفســك يوماً ما: لِمَ أنت بالذات الذي يقيمــك الله تعالى من نومــك، ويخرجك من بيتك، ويعينك ويســدِّدك حتى تؤدِّي فريضة مــن فرائضه، وتعود خالياً من خطاياك وذنوبك؟!.

أما سألت نفسك عن العالم من حولك الذي لم يدلُّه الله تعالى على الطريق بعد، لا يعرف أذاناً، ولا يقوم إلى وضوء، ولا يشهد صلاة ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]!

لماذا أنت بالذات دون غيرك؟ لماذا خصَّك الله تعالى بهذا الفضل؟! لماذا اصطفاك واجتباك من بين مليارات العالم؟ ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

كم من إنسانٍ يعرف قدر الصلاة وأهميتها وقرأ آلاف الصفحات في آثارها، ولكنَّه محروم يتململ عند الأذان ألف مرَّة، ويعود إلى فراشه، ولا يستيقظ إلَّا وقد انتهت أحداثها وجماعتها، فيعود إلى فراشه، وقد أكل الأسى والحرمان قلبه!.

كم من إنسانٍ يبحث عن الهداية، ويقلِّب بصره في أحداثها، ويحاول ولكن لم يدلَّه الله تعالى على الطريق بعد؛ إمَّا لتفريطٍ سابقٍ وطولِ أمدٍ كاذب، وإمَّا لدسيسةٍ في قلب صاحبها أضاعت عليه تلك الهداية!.

كانت هدايتي للعلم الشرعي بعد توفيق الله تعالى من زميلٍ ألقى إليّ بشريطٍ فيه شرح لأحاديث جلود الميتة من بلوغ المرام! وقد يقول متحذلق حينها: وما يصنع به إنسان لا علاقة له بالعلم الشرعي، والمسألة التي يبحثها غير مطربة لإنسانٍ عاديّ، وهذا الشريط جزء من مئة وثمانية وعشرين شريطاً، وليس هو الأوّل فيها الذي يتحدّث عن فضل العلم، ولا آخرها الذي يتحدّث عن نهايات مشروع.

وَفَاتَهُ، وفاتَ كثير من الناس أنَّ الذي يهدي هو الله تعالى، وأنَّ دور الإنسان العطاء والبذل وحسن النية، وما بقي يتولّاه الله تعالى.

سمعت جزءاً من الشريط، ودار في ذهني لحظتها عراك العلماء في المسألة من قائل بطهارتها لحديث: «**أيُّما إيهابٍ دبغ فقد طهر**»، وقائل بالمنع لحديث عبد الله بن عكيم: (**لا تنتفعوا من الميتة بإيهاب ولا عصب**)، وثالث يقول: هذا حديث ضعيف لا تقوم به حجّة.

وكانت هذه المعركة العلمية كافية لإشباعي تلك اللحظة بهذا المشروع، فيمَّمت وجهي في نهاية الأسبوع إلى منظومة تلك الأشرطة مئة وثمانية وعشرين شريطاً، عكفت عليها، وكتبتها كلَّها وأقبلت عليها، وكانت هي فأل الحياة فيما بعد!.

هَدَى الله تعالى التابوت، وهو جماد من الجمادات في لجج البحر إلى بيت فرعون! كم هي المسافة من بيت أم موسى إلى قصر فرعون! والطريق السالك به إلى هناك لجج البحار يتوه فيها العاقل، ويضيع فيها الماهر، ولا يبلغ شيئاً من أمانيه، ويظلُّ هذا التابوت في الطريق ذاته لا يضلُّ عنه حتى يقف على باب القصر والملك، ويسلِّم وليداً للحياة في قصور الظلم والطغيان!.

هدى الله تعالى لهذا الدين زوج فرعون، وهي معه في قصر ملكه وتحت تصرُّفه وفي أفياء الملك، وفي ربوع المال وأفنان الحياة، فقبض قلبها عن الكفر، وأصمَّ أذنيها عن الضلال، وأقبل بقلبها على النور، فتركت كلَّ أنواع الحياة الماديَّة، وتاقت إلى الآخرة

الكبرى ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

هدى الله تعالى قلب الجبّار المتكبّر الضّال الطاغية فرعون، وهو أشد القلوب تحجُّراً لرأي زوجه في قصّة موسى ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩] وقد كانت هناك ألف حيرة في قلــوب العالمين فضلاً عن قلب أمه تلك اللحظة: ماذا يصنــع به فرعون وقد تكفَّل بذبــح كلِّ طفل من بني إســرائيل؟ وهذا يدخل قصره، ويصل إلى يده!.

هدى الله تعالى موسى عليه السلام وهو مولود إلى ثدي أمه من بيــن كلِّ العروض التي قُدِّمــت له، وهو في أمسّ الحاجة إليها ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ ﴾ [القصص: ١٢، ١٣] فشــمَّ صدرها وألقى بفمه إلى ثديها، وســكت من بكائه، وهــدأ روعه، وأقبل على الحياة، وفرعــون لا يملك أمام هداية الله تعالى شيئاً!.

هدى الله تعالى السَّحَرة، وهم في أوج طغيانهم وتمام بغيهم وعدوانهم، وألقى الله تعالى بالإيمان في رحاب قلوبهم في اللحظة التي يبارزون فيها رسوله موسى عليه السلام! ومن كان يتوقَّع أن يتحوّل أولئك السَّحَرة الذين استغاث بهم فرعون في لحظة حاجة إلى مؤمنين طائعين ساجدين لله تعالى!.

لقد اعتنى فرعون بمن اختار، وبعث الناس يبحثون عن أقوى السَّحَرة، وأعلمهم صنعةً، وأكثرهم حذقاً، وأقواهم علماً، وأشدّهم إدراكاً، كما أشير عليه بذلك ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦، ٣٧] وبذل في سبيل ذلك كلَّ شيء، وجمع الناس في ذلك اليوم ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩] نصرةً للباطل، ودعماً للضلال، وتشجيعاً للأوهام على حساب الحقائق.

وحين جاء السَّحَرة جاؤوا وهم موقنون بالنصر والفوز، ولم يخالطهم أدنى شكٍّ في ذلك حتى إنَّهم ساءلوا الملك أمام تلك الجموع ماذا لديك لنا؟ ما المكافأة المجزية التي ستدفعها مقابل هزيمة عدوِّك

والواقف في طريق أحلامك؟! ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، (قال: نعم)، وليس هذا فحسب! ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤].

سأسألك في هذه اللحظة: لو أنك كنت أحد الحاضرين، وأنت ترى موسى عليه السلام، وليس في يده إلّا عصاه، ورأيت تلك الجماهير التي جاءت لفرعون وسحرته: ما الذي سيجري في ذهنك تلك اللحظة؟.

ملك، وأعتى السَّحَرة، وجماهير تلك الأرض داعمة ومشجعة وتنتظر النتائج، وفي المقابل رجل لا يملك إلّا عصاه!.

حدِّثني عن مشاعرك تلك اللحظة!.

قل لي: كم نسبة فوز ونصر موسى عليه السلام، ونسبة فوز ونصر السَّحَرة في ذهنك تلك اللحظة؟.

أخبرني هل كان يجري في خاطرك، ولو نسبة واحد في المئة (١٪) أن ينتصر ذلك الفرد الذي لا يملك سوى عصاه؟!.

إذا نظرت للمعركة من فلك الحسابات المادية، فمن المستحيل ألف مرَّة أن ينتصر موسى أو أن

يكون له شيئاً! وإذا نظرت من فلك الحسابات الإيمانية والتوكُّل على الله تعالى، ونصر الله تعالى لأوليائه عرفت حينها أنَّ الفرد الذي لا يملك إلَّا عصاه هو الذي سيخرج فائزاً منتصراً لا بذاته، ولكن بإيمانه ومنهجه ورسالته التي جاء بها للعالمين!.

لقد آذن ظلام الليل بالفرج، وحان موعد الحقائق، وأتت لحظات السنن تأخذ حظَّها من قلوب الموقنين!.

أدعوك أن تفتح عينيك جيداً، وترقب المشهد الذي يجري بإمعان ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] طال الانتظار، ولا بدَّ من بداية المعركة، فإمَّا أن تبدأ وتخلِّصنا من ذلك الانتظار الطويل، وإلَّا نحن الذين نلقي، ثم اصنع لنفسك حينها مخرجاً! أَرِنَا حينها صدقك وقيمك وما لديك!.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ [طه: ٦٦] اصنعوا البدايات! كوِّنوا ما جئتم من أجله! اطرحوا ما لديكم!.

ألقوها فما النتيجة؟! ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ألقوها على الأرض، فإذا به

يراها تتحرَّك، وتسعى كالثعابين والحيَّات لا فرق! هنا أخفق القلب البشري قلب موسى عليه السلام خوفاً ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧] ماذا يصنع؟!.

الملك واقف ينتظر! والساحة مكتظة بالجماهير! وقد دقَّت ساعة الحرب! والسَّحَرة يعبثون بتلك الجماهير كما يشاؤون، وقلب موسى يخفق مراراً، ولا يدري ما يصنع أمام جبروت الطغاة!.

في مرَّات كثيرة يترك الله تعالى الطغيان يأخذ حظَّه كما يشاء، فإذا ما كان مصرَّاً على النهايات ألقى به إليه كما يشاء!.

ما كان لفرعون أن يضع نفسه في تلك المواقف المحرجة أمام الجماهير التي خدعها وضحك عليها سنين طويلة! لولا أنَّ المسألة بلغت تلك النهاية التي أراد الله تعالى لها.

المدهش أنَّ كلَّ هذه المشاهد من أجل هداية أولئك السَّحَرة!.

من أجل إقامة الحجج عليهم وإعادتهم إليه من جديد!.

قال الله تعالى ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا ﴾ [طـه: ٦٨، ٦٩] وهنـا كانت النتيجة الكبرى!.

﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ [طـه: ٧٠] ليس هذا فحسـب! ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٧٠]! أمام الملأ وأمام فرعون وأمام كلِّ شيء!.

إعلان الهوية الضائعة من سـنوات، التخلِّي عن الأوهام والفوضى من سنوات، وحين قالوا ذلك ثار الطاغية ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١] وهيهات!.

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه: ٧٢] افعل ما تريد، ففي النهاية لن يجـاوز ما صنعت هـذه الفانية ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

لعلَّك تسأل نفسك:

لماذا كلُّ تلك الأحـداث التي جـرت؟ لماذا تلك

الأوقات المستقطعة، والاستنفار الكبير، وكلُّ تلك الحشود؟ لِمَ بالذات؟! لأنَّ الهادي تعالى يريد أن يعيد أولئك السَّحَرة إليه من جديد ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٣]!.

كم من إنسانٍ هيَّأ الله تعالى له حادثاً مروِّعاً، أو موقفاً محرجاً، أو خطأً عريضاً، لا ليفضحه ويكشف سرَّه، ويعذِّبه، ويجري عليه الديون، كلّا! وإنَّما ليعيده إليه من جديد!.

هدى الله تعالى أنبياءه ورسله للحق، فحملوا الرسالة وناضلوا من أجلها، وظلُّوا يُضرَبون ويُعذَّبون وتجري عليهم صنوف العذاب، ولا يزيدهم الله تعالى إلّا هداية وثباتاً.

يعيش نوح ألف سنة إلَّا خمسين عاماً، وهو يواجه الاستهزاء والسخرية والظلم والطغيان، ولا يتوقف لعارضٍ من تلك العوارض.

يلقى إبراهيم عليه السلام من أبيه صنوف الهجر والصدِّ والإباء، ولا يزال مصرّاً على هدايته، ويلقيه قومه في النار ومايزال على الطريق.

يُشجُّ رأس نبيّنا ﷺ، ويُلقى سلا الجزور على ظهره، ويحاصر في شعب أبي طالب ثلاث سنوات حتى يأكل ورق الشجر، ويُطرد من مكة، ويُرجم بالحجارة في عودته من الطائف، ويُمنع من دخول مكة، ويعرض عليه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين حتى يحين موعد النصر الكبير بفتح مكة وكلُّ ذلك هداية الله!.

في مرَّات تعرف كلّ شيءٍ عن نفسك، وتكتب تفاصيلها الدقيقة، ولكنَّك لا تهتدي إلى فكرتك ومشروعك وقضيتك التي تعيش من أجلها، وتبقى الدهر كلَّه أو جلَّه تسأل عن بارقة أمل تفتح لك هذا الطريق، فلا تلقى شيئاً، وترحل من الحياة دون شيء.

وفي مرَّات أخرى يهديك الله تعالى لمعرفة مشروعك وقضيتك وفكرتك، ولكن لا تُعان عليها فتعيش سنوات في مكانك، لا تخلق جديداً، ولا ترى فرحاً، ولا تصنع لك معرفتها جديداً، ولا تُمَلِّكك منها حلماً.

وفي مرَّات يهديــك الله تعالى لمعرفــة قدراتك ومهاراتــك وإمكاناتــك، ويهديــك تعالــى لمعرفة مشــروعك وفكرتك وقضيتــك التي تناســب تلك القدرات، ويهديــك ثالثة، فيقبل بقلبك ومشــاعرك وأنفاســك إلى هذا المعنى، فتصنع فيه وله كلَّ شيءٍ في أقصر ما يكون.

في بيوت وأســر عادية جداً، ليس لها من شؤون التربية والإصلاح شيئاً، تخرج تلك الفتاة المستقيمة، والتي تشرَّبت الإيمان، كأنَّما ســقيت به زمناً طويلاً معتزَّة بدينها وحجابها وقيمها ومبادئها الكبرى، وترى شابَّاً عليه ملامح الهداية والنور والفلاح، فتسأل عنه فتجده من أسرة لا علاقة لها بقضايا التربية والإصلاح والبرامج الأسريَّة، ومحاضن التربية في شيء.

وفي المقابل ترى بيوتاً أعلام هدى، وقد بذلت كلَّ شــيءٍ على أبنائها وأســرها من سنوات طويلة، ولم يخرج من تلك الأسرة شابٌّ ولا فتاة على قدر تلك الجهود والمشاريع، والمحاضن التي اجتُهِدَ في سبيل بنائها.

كثيرة هي الأسئلة التي تواجهك من شاب: كيف أستقيم؟ ما الطريق إلى الحياة؟ ما السبيل إلى النعيم؟ حاولت، تعبت، جهدت في البحث، وما زال مستمراً ولم تتهادَ الحياة إلى قلبه بعد! وآخر فجأة تراه كلَّ شيء!.

لا تقلق!.

هذه الهداية أقرب ما تكون إليك، وإذا رآك الله في الطريق ردَّك إليه أعجل ما تكون ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧]، ﴿ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [آل عمران: ١٠١] فلا تيأس، توكَّل على ربِّك تعالى، وأقبل بنفسك إليه، وسله مُلحّاً أن يهدي قلبك، ويقبل بك، ويوردك للحياة، وليس ذلك ببعيد بإذن الله تعالى.



الـتـوَّاب

كلُّ الذين يشتكون شعث الحياة، ويجدون قلقها في قلوبهم ومشاعرهم، ويكتوون بلظاها، ويتساءلون في مرَّات كثيرة: كيف نجد الحياة؟ وكأنهم لم يقرؤوا تلك الحقيقة القرآنية المدهشة: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: كثير التوبة، فليس هناك من ذنب ولا عمل ولا سيئة إلَّا وهي قابلة للتوبة عظمت في نفسها، أو طالت في وقتها، أو أوغلت في خطئها! وإذا عَرَفْتَ ربَّك بهذا المعنى قرَّب لك كلَّ شيء.

في مرَّات كثيرة يسوقك الله تعالى إلى شهواتك ومراداتك لا ليغمسك في حمئها، وإنَّما لينقلك منها إليه من جديد.

أراد أحد التجار السَّفر ليقضي فيه شهواته وعبثه وفوضويَّتـــه، ويسَّـــر الله تعالى له كلَّ شـــيء، وحين وصل، واســـتقرَّ، شـــعر بشـــيءٍ من الألـــم، فذهب للمستشفى، وأجرى الفحوصات الطبية، فاتضح بأنَّه ورم سرطاني، فجُنَّ جنونه، وفاق من سكرته، وانتبه من غفلته، فقطع سفره، وعاد إلى دياره وما زال مقبلاً على الله تعالى، ملازماً للمسجد والذكر والقرآن حتى شفاه الله تعالى وعافاه، واســـتقام وصلح حاله، وعاد يرفل في نعيم ما كان يخطر له على بال.

عاش الفضيل بن عياض قاطعـــاً للطريق زمناً من عمـــره، وذات مرَّة عشـــق جاريةً، وخـــرج في الليل يبحث عنها، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع تالياً ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦] فضربت قلبه، وولجت مشـــاعره وألقت بالحياة في روحه، فقال: بلى يا ربُّ قد آن!.

نزل عن الجدار وأقبل على خربة، فإذا فيها رفقة يقول بعضهم لبعض: هيَّـــا بنا نرتحل، فـــإن فضيل بن عياض يقطع الطريق، فتاب رحمه الله وبقي مجاوراً للحرم حتى مات.

وسـئل عمر بـن عبد العزيز رحمه الله تعالى مـا كان بدء إنابتك؟ فقـال: أردت ضرب غلام لـي فقال لي: يا عمر! اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة!.

ساق الله تعالى ذات مرَّة لشاب يلهو في عرض الطريق صلة بن أشيم رحمه الله تعالى، كان يمرُّ بذلك الطريق الذي يلعب فيه مجموعة من الشباب، وهم يلهون ويلعبون، فكان يسـألهم: أخبروني عن قوم أرادوا سـفراً فحادوا النهار عن الطريـق، وناموا بالليل متى يقطعون سفرهم؟ يصنع ذلك في كلّ مرَّة يمر بهم حتى ألقى الله تعالـى توبته في قلب أحدهم، فحيي قلبه وقال يا قـوم: والله هذا لا يعني غيرنا! فتبع صلة، ولم يزل في رفقتـه متعبِّداً لربِّه تعالى حتى مات.

وقد يأتي الله تعالى بك إليـه في صورة تمتعض منها ولا تحبُّها، وفي أعطافها الحياة لقلبك ومستقبل أيامك.

كان غلامٌ من الغلمان حسـن الصوت يضرب على آلة عزف، ويُغنِّي فمرَّ ابن مسعود رضي الله عنه، فضرب

إناء الخمر، وكسر تلك الآلة، ثم قال: يا غلام لو كان ما يسمع من حسن صوتك بالقرآن كنت أنت أنت ثم مضى! قال هذا الغلام: من هذا؟ فقالوا: ابن مسعود رضي الله عنه قال: فألقى الله تعالى التوبة في قلبي، فسعيت إليه أبكي وأخذت بثوبه، فأقبل عليَّ فاعتنقني وبكى وقال: مرحباً بمن أحبّه الله!.

التوَّاب تعالى لا ينظر إلى حجم معصيتك ولا إلى قدر سوئها بقدر ما ينظر إلى حاجتك وضعفك، فيتوب عليك ويكرمك ويعيدك للحياة من جديد.

حدَّث النبي ﷺ أنَّ رجلاً قتل تسعة وتسعين نفساً، فجعل يسأل هل لي من توبة؟ فأتى راهباً، فسأله فقال: ليست لك توبة، فقتل الراهب، ثم جعل يسأل، ثم خرج من قرية إلى قرية فيها قوم صالحون، فلما كان في بعض الطريق أدركه الموت، فنأى بصدره، ثم مات، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فَجُعِلَ من أهلها! ولن يبلغ هذا الخبر قلبك ومشاعرك حتى تعيد قراءته مراراً!.

يقول الله تعالى في حال إنسـان قتل نفساً واحدة ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] كلُّ هذا الوعيد العظيم ثمَّ يأتي هـذا الرجل الـذي قتل مئـة نفس، وليـس له في الصالحات شيء، وبمجرَّد أنّه أراد التوبة، وحنَّ قلبه للحياة، وبدأ خوف ربّه يتسـلّل إلى قلبه، وأراد أن يعود بعد هجـر طويل، منَّ الله تعالـى عليه بما لم يكن له في الحسبان!.

ليس له من العمل إلّا تلك النيّـة التي تتردَّد في قلبه، وذلك العزم الصادق على رجاء ما عنده، فصنع الله تعالى له كلَّ شـيء! مات فـي منتصف الطريق، واختصمت فيـه ملائكة العذاب وملائكـة الرحمة، ملائكة الرحمة تقـول: يا ربُّ أقبل تائبـاً، وملائكة العذاب تقول: ليس له من العمل الصالح شـيئاً! وما تصنع نيّة في مقابل دماء أمة سفكها عبثاً وفوضى؟!.

ما تصنع إرادة التوبة في سـيل الدماء الذي ملأ الأرض عبر سـنوات! ما تصنع التوبة في ظلام ليل

من السيئات! غير أنَّ هذه الحسابات هي التي نجريها نحن البشر أمَّا الله تعالى فلا!.

جاء مَلَك فحكم بينهم قائلاً: قيسوا المسافة ما بين مكانه والأرض السيئة التي خرج منها، والأرض الصالحة التي يريدها، فأيُّهما أقرب فهو لها، وهو في منتصف الأرض تماماً.

لأنَّ الله تعالى هو التوَّاب جعل هذه النية الصالحة، وهذه الإرادة الصادقة أعظم من دماء مئة من الخلق أسقت الأرض في زمنٍ ما! أوحى الله تعالى إلى الأرض الصالحة، وهي أرضه وفي ملكه وتحت تصرُّفه أن تتقارب شبراً، وفي رواية فنأى بصدره نحو الأرض الصالحة شبراً حتى يجري الحساب لصالحه، ويذهب إلى الجنان ولا حاجة لله تعالى بعذابه ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء: ١٤٧].

(يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك

في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً!) رواه مسلم.

حكى رسول الله ﷺ قصة رحمة الله تعالى وتوبته على عباده وحبِّه لذلك المعنى الكبير فقال: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل حمل زاده ومزاده على بعير، ثم سار حتى كان بفلاة من الأرض، فأدركته القائلة، فنزل، فقال تحت شجرة، فغلبته عينه، وانسلَّ بعيره، فاستيقظ فسعى شرفاً، فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثانياً، فلم ير شيئاً، ثم سعى شرفاً ثالثاً، فلم ير شيئاً، فأقبل حتى أتى مكانه الذي قال فيه، فبينما هو قاعد إذ جاءه بعيره يمشي، حتى وضع خطامه في يده، فللّه أشدُّ فرحاً بتوبة العبد، من هذا حين وجد بعيره على حاله**» رواه مسلم. وإني لأحلف ولا أستثني أحداً أنَّ هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث لم تأخذ حقها من قلوبنا ومشاعرنا وعقولنا حتى هذه اللحظة!.

من عرف هذا المعنى كيف يتصبّر عنه! ومن أدرك هذا الحبَّ كيف يتسلّى بشيءٍ من الدنيا دونه!.

حين تتوب، فأنت تخلـــع عبوديّة الهوى والنفس والناس من قلبـــك وتجعلها لله تعالـــى، تتفوّق على شهواتك، وتســـتعلي على رغباتك العارضة من أجل ربّك. تعود حرّاً طليقاً بعد أن كنت مقيّداً ترسف في قيود الحريّات.

حين تتـــوب تُلقـــي بأثقال الذنوب عـــن ظهرك، وتتخفّف من أثقال الأوزار، وتعود خفيفاً كما قال الله تعالى ممتنّاً على رسوله ﷺ ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح: ٢، ٣] فإذا كانت صغائر الخطايا من رســـول الله ﷺ تثقل ظهره حتى ألقاهـــا عنه ربُّه تبارك وتعالى فكيف بي وبك؟.

التوّاب لا يضرُّه طول غيابـــك، ولا كثرة بغيك، ولا قبيـــح فعالـــك، يمهلك طويـــلاً حتى تظـــنَّ أنه لا ســـبيل لك إليه، ثم يردُّك إليه ردّاً جميلاً، فتجري أفراحك كأنَّك لم تولد إلَّا تلك اللحظة!.

كم هم صحابة رسول الله ﷺ الذين عاشوا في الجاهلية زمناً طويلاً، ثـــم ردّهم الله تعالى إليه من جديد.

عاش خالد بن الوليد يدير شـــأن الجاهلية زمناً من عمره، وحقَّق انتصارات كثيرة في صالح الكفر والجاهلية والباطل، ثم عاد إلى ربّه. فأصبح ســيفاً من سيوف الله تعالى!.

وكثير منهم ظلُّوا زمن الرســالة كلِّه أو جلّه على الباطل والجاهلية والكفر حتى عادوا في فتح مكة في العام الثامن من الهجرة، فلا تستبطئ عودة أحد مهما كان جهله بربّه وتطاوله عليـــه، وضلاله في الأرض، فكم من لحظةٍ تأتي على غير ميعاد!.

تقرأ هذا النصّ الكبير: (**يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنســكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شــيئاً**)، وتقرأ في المقابل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

لا حاجة به إليكم غير أنَّه يريد لكم التوبة والرحمة والفلاح والرشد! لا يريد شقاءكم وعذابكم وضلالكم وبعدكم، وإنَّما يريد أن يتوب عليكم ﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

إذا وقفت أمام شهوة، أو دعتك نفسك لهوى أو جهل، فتأمَّل هذا المعنى الكبير: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٧، ٢٨] ثم قارن واختر إرادة الله تعالى أو إرادة أصحاب الشهوات!.

قارن بين شهوة عاجلة ومتعة زائلة وبين نعيم الدارين! قارن بين أن تكون تبعاً لمخلوق وفي صفّ إبليس، وبين أن تكون عبداً لربّك وطائعاً لمولاك، وفي الطريق الذي يجمعك برحمته وهداه وتوفيقه في الدارين.

إذا طمعت في عاجلٍ، وأغرتك الدنيا بمفاتنها، فاقرأ على نفسك: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١].

ثمَّة فرقٌ كبيرٌ جداً تصنعه توبتك وإنابتك وطاعتك لربك تعالى مهما حاولت أن تتصوره، فلا سبيل لك إليه ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]،

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] لا يمكن أن يكون المؤمن المحسن كالمجترح للسيئات، والعامل بالخطايا، والضائع في الشهوات.

لا يمكن أن يكونوا سواءً في رحلة قلوبهم وطمأنينة مشاعرهم، وسكينة أرواحهم! ولا يمكن أن يكونوا سواءً في استقرار بيوتهم، وصلاح ذرِّيَّاتهم، ونجاحهم في وظائفهم! لا يمكن أن يكونوا سواءً حتى عند موتهم، وفي قبورهم، ويوم وقوفهم بين يدي الله تعالى!.

الفرق فوق خيالك، وأكبر من تصوُّرك، ومن جرَّب عرف كلَّ شيءٍ!.



الــرقـــيــب

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل: عليَّ رقيب
ولا تحســـبنَّ الله يغفل ســـاعة
ولا أنَّ مـــا تخفيـــه عنه يغيب
ألم تَرَ أنَّ اليوم أســـرعُ ذاهبٍ
وأنَّ غـــداً للناظريـــن قريـــب

مرَّ عبد الله بن عمر بغلام يرعى غنماً، فأشار إلى إحدى الشـــياه، وقال له: بعني هذه الشـــاة يا غلام! فقال الغلام: إنَّها ليست لي! فقال ابن عمر ﵄: قل لصاحب الغنم: إنَّ الذئب أكلها! فقال: فأين الله!.

دخل رجل إلى امرأة، وأقفل عليها كلَّ الأبواب، فلما اقترب منها قالت: أقفلت الأبواب؟ قال: نعم، أقفلتها كلَّها، فقالت: بقي باب لـــم يُقفل؟ قال: أيُّ باب؟ قالت: بقي باب الله تعالى، فتركها!.

في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهط ممَّن كان قبلكم حتَّى أوَوا المبيت إلى غارٍ، فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل، فسدَّت عليهم الغار، فقالوا: إنَّه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلَّا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهمَّ كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أَغْبِقُ قبلهما أهلاً، ولا مالاً، فنأى بي في طلب شيءٍ يوماً، فلم أُرِحْ عليهما حتَّى ناما، فحلبت لهما غَبُوقَهُما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أَغْبِقَ قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يديَّ، أنتظر استيقاظهما حتَّى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غَبُوقهما، اللهمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرِّج عنَّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج، وقال الآخر: اللهمَّ كانت لي بنتُ عمٍّ، كانت أحبَّ النَّاس إليَّ، فأردتها عن نفسها، فامتنعت منِّي حتى ألمَّت بها سَنَةٌ من السِّنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومئة دينار على

أن تخلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قَدَرْتُ عليها، قالت: لا أحلُّ لك أن تفضَّ الخاتم إلَّا بحقِّه، فتحرَّجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحبُّ النَّاس إليَّ، وتركت الذَّهب الذي أعطيتها، اللهمَّ إن كنت فعلت ابتغاءَ وجهك، فافرُج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصَّخرة غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج منها، وقال الثالث: اللهمَّ إنِّي استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم غير رجلٍ واحدٍ ترك الَّذي له وذهب، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حينٍ فقال: يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري، فقلت له: كلُّ ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إنِّي لا أستهزئ بك، فأخذه كلَّه، فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهمَّ فإن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك، فافرُج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصَّخرة، فخرجوا يمشون».

تأمَّل هذه المراقبة! وانظر لبرِّ ذلك الابن بوالديه! وصاحب المال بعامله، وذلك الرجل

المقتدر على تلك المرأة وقد تركها لله! ولا يصنع هذا الواقع في العادة إلَّا هـذا الخلق المتين! وما أحوج زماننا إليه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: فمن أصلحَ سـريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السرائر، فإنَّه لا ينفع مع فسادها صلاح الظاهر. اهـ.

وقال أبو حفص النيسـابوري: إذا جلست للناس فكن واعظـاً لقلبك ونفسـك، ولا يغرَّنَّك اجتماعهم عليك، فإنَّهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك. اهـ.

كان أحدهم يحضر مجلسـاً من مجالس العلم بعد صلاة الظهر لدقائق فـي فترة العمل، وفي آخر الشهر طلب إجازة من رئيسـه لمدة ستة أيام، ولم يغادر العمل. فسأله رئيسه لِمَ؟ قال: لقد استهلكتها، كنت أحضر في بعـض الأيام درسـاً قصيراً عقب صلاة الظهر فجمعتها، فتحصَّلت عندي ستة أيام هي هذه التي أخذتها منك، فذُهش رئيسـه من موقفه، قال صاحب القصَّة: في اليـوم التالي صلَّيت الظهر وحضرت الدرس، فإذا برئيسي يحضر معي الدرس.

وما أكثر أثـــر الدروس العمليّة فـــي حياة الآخرين!
وكم من كثيرٍ لا ينفع في شيء! قال ابن القيم رحمه الله:
وأرباب الطريق مجمعـــون على أنّ مراقبة الله تعالى
في الخواطر سببٌ لحفظه في حركات الظواهر. فمن
راقـــب الله في ســـرّه حفظه فـــي حركاته في ســـرّه
وعلانيته. اهـ.

قد تدخل بيتك، وغرفتك الخاصّة، وتقفل جميع
الأضواء التي حولك، وتخلو بنفســـك. وتتخيّل أنّه
لا ســـبيل إليك وتجري أحداث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ
رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١] بما يفوق تصوُّرك وخيالك!

جوّالـــك الذي في يـــدك ترى مـــن خلاله كلَّ
شيء، وقد علّمتنا التقنية كيف نحكم قفله، ونضع
له رقماً يصعب علـــى المحترفين فكُّه، ويفوتنا في
تلك اللحظـــة ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي
كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

دخل يوسف عليه السلام بيت العزيز ملك مصر، ودخلت
عليه امرأة الملك بعد أن صنعت في نفسها كلَّ أشكال

الزينة، وأحكمت أبواب القصـر، وهي زوجة الملك وسيِّدته، وهو مجرَّد أجير عندها فحسب، وهو أعزب، وفي ديار غربة، وفي فورة الشـباب، وإغـراء الزينة والجمال، وهـي الداعية ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: ٢٣]، فيقف إجـلال الله تعالى وتعظيمه فـي قلبه في تلك اللحظة العصيبة ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣] وتُمْسِكُ به ويفرُّ منها إلى الأبواب، وتجذبه حتى قطعت ثيابه، وبقي كبيراً أمام إغراء الشهوات! وأعلنت في النهاية أمام الملأ ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ [يوسف: ٣٢]! وحقُّ هذا المعنى ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ أن يقام له حفل عرس في مثل زماننا!.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧]!.

في الصحيحين مـن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «سـبعة يظلِّهم الله في ظلِّه، يوم لا ظلَّ إلَّا

ظلُّه: الإمام العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة ربِّه، ورجل قلبه معلَّق في المساجد، ورجلان تحابًّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»، شابٌّ نشأ في عبادة الله تعالى وراقب الله تعالى، وتفوّق على كلِّ مغريات الحياة، وصنع لنفسه منزلاً في مواقف القيامة لشدَّة حيائه وخوفه ووجله من الله تعالى! ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فوقفت تقوى الله تعالى وتعظيمه وإجلاله دون هذه المغريات!.

ذات مرّة انطفأت الكهرباء في مدينة من مدن العالم ليلة واحدة فقط، فتكبدَّت الكثير من خسائر السطو والسرقات ما يجري في سنوات! وإذا ضاع أمر الله تعالى من القلوب لم تستطع الأنظمة إيقاف الإنسان عن الفساد.

حين وقف أبو جهل أمام رسول الله ﷺ وواجه الدعوة، وكان خصماً لدوداً لدينه ومنهجه أشار الله

تعالى إلى فوات هذه الصفة من قلبه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]!.

خطب عروة بن الزبير ابنة عبد الله بن عمر (سودة) وهو يطوف بالكعبة في الحج، فلم يردّ عليه، فقال عروة: لو كان يريد لأجابني والله لا أعود إليه، يقول: فسبقني للمدينة فلما وصلتها قدمت المسجد فوجدته جالساً فيه فسلّمت عليه. فقال: ذكرت سودة؟ فقلت: نعم، فقال: ما زلت راغباً؟ فقلت: نعم، فقال: قد ذكرتها لي وأنا أطوف بالبيت أتخيَّل الله بين عيني، وكنتَ قادراً أن تلقاني في غير ذلك الموطن!.

الرقيب يعرف دقائق القلوب وأسرارها، والباعث لها، وخطراتها وما يجري فيها قبل كل شيءٍ.

ففي الصحيحين من حديث سهل بن سعد الساعدي أنَّ رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون، فاقتتلوا، فلمَّا مالَ رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومالَ الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذَّة إلَّا اتبعها يضربها بسيفه،

فقالوا: ما أجزأ منّا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رســول الله ﷺ: «**أما إنَّه من أهل النار**»، فقال رجل من القوم: أنا صاحبه أبداً، قــال: فخرج معه، كلّما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحاً شــديداً، فاســتعجل الموت، فوضع نصل ســيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل علــى ســيفه، فقتل نفســه، فخــرج الرجــل إلى رســول الله ﷺ، فقال: أشهد أنَّك رســول الله، قال: «**وما ذاك؟**» قال: الرجل الــذي ذكرت آنفاً: «أنَّه من أهل النار»، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت فــي طلبــه حتَّى جــرح جرحاً شــديداً، فاســتعجل المــوت، فوضع نصل ســيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**إنَّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبــدو للناس، وهو من أهــل النار، وإنَّ الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**» فتأمَّل كيف أنَّ هذا خرج في الظاهر مجاهــداً، ويلبــس لَأْمَــةَ الحــرب، وفــي رفقــة رســول الله ﷺ، وخلَّف أهلــه وديــاره، وأقبل في

صفوف المجاهدين، ولو سألت كلَّ من رآه لقال لك بأنَّه في سبيل الله تعالى حيّاً وميّتاً إلّا أنّ الرقيب يرصد كلَّ شيء، ويعرف خبايا القلوب، ويرصد دقائقها، ويكشف سترها حين يريد، من كان يتخيَّل أنَّ هذا الذي فلق هام الأعداء سيكون حطباً لنار جهنم والعياذ بالله! من كان يتصوَّر أنَّ رجلاً يبلغ هذا الحدَّ من الأثر، ثم إلى نهايات السُّوء والعياذ بالله تعالى.

وعن شدَّاد بن أوس أنَّ رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فآمن به، واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلمّا كانت غزوةٌ غنم النبي ﷺ سبياً فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلمّا جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسْمٌ قسمه لك النبي ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ، فقال: ما هذا؟ قال: «**قسمته لك**»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمى هاهنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال ﷺ:

«**إن تصدق الله يصدقك**» فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به إلى النبي ﷺ يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ «**أهو هو**»؟ قالوا: نعم، قال: «**صدق الله فصدقه!**» ثم كفَّنه النبي ﷺ في جُبَّة ثم قدَّمه، فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «**اللهمَّ هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك**».

الرقيب يرى القلوب الصالحة للحياة فيكرمها، ويفتح لها آفاقاً من الخير (**إنَّما الأعمال بالنيَّات**) والنيَّة لا يراها إلَّا هو تعالى! ويرى في المقابل دسائس النفاق والجرأة عليه تعالى، والاستهانة بأمره، وعبث الشهوات وسوء النوايا، فيجري عليها نهايات السوء! «**وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**» ولا يعرف ذلك سوى الله تعالى!.

يقف إنســان بين يدي الله تعالــى في صلاته، فيرى الله تعالى بين عينيه ويعرف رقابته، فيرى الله تعالى خشوعه وســكينته وتطلُّبه لما عنده تعالى، فيجري عليه فواتح التوفيق، ويصنع له كلّ شيء.

ويقف آخر فيفــوت عليه هــذا المعنى الكبير فتكون صلاته أشــبه ما تكون بالصور (**والإحسان: أن تعبد الله كأنَّك تراه فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك**).

وأوَّل من تســعَّر بهم نــار جهنم ثلاثــة: مجاهدٌ، ومتصدِّقٌ، وقارئٌ للقرآن، وذلك لفوات رقابة الله تعالى من قلوبهم، خرج الأول منهم في الصورة والظاهر في ســبيل الله تعالى، ولكــن الرقيب رصد ما فــي قلبه، وحرصه على صــور الدنيا العاجلة، فقيــل له في يوم القيامة: كذبت، وإنَّما جاهدت ليقال أنَّك شجاع! وبذل الثاني ماله، فجاء يوم القيامة فسُــحِبَ إلى نار جهنم، فقال يــا ربِّ: إنَّما أنفقته في ســبيلك، فقال له تعالى: كذبت، إنَّما أنفقته ليقال لك جواد، وقد قيل!.

وبذل الثالث أوقاتاً طويلة وليالي وأياماً في حفظ كتاب الله تعالــى، وتعلُّم العلم، فقال لــه الله تعالى:

كذبت، إنَّما تعلمت ليقال عنك عالم، وقد قيل، وقرأت القرآن ليقال قارئ وقد قيل! وفرق بين الحقائق والصور! ولا يفوت على الرقيب شيء!.

في مرَّاتٍ كثيرة ندخل المصعد في مكان ما، فتجد في زاوية منه (المصعد مراقب بالكاميرات)! فتظل صامتاً تستحي من الحركة العادية لإدراكك أنَّها مصوَّرة، وتجري عليها أحداث الرقابة البشرية! فكيف بمن يعرف كلَّ شيء!.

كان شيخنا ابن عثيمين رحمه الله يدخل الجامعة ويعبِّئ قلمه الذي يصحِّح به لطلابه في أيام الاختبارات من محبرة، وإذا أراد الخروج مرَّ على تلك المحبرة، وأفرغ فيها ما بقي من الحبر، فقيل له في ذلك، فقال: هذا حبر بيت مال المسلمين، ولا حقَّ لي فيه! وكان رحمه الله يتحرَّج شرعاً من أن يتصل من تلفون العمل أو يرسل من فاكسه أو يستقبل على شيءٍ من تلك الأدوات، ويرى بأنَّ ذلك حقٌّ عامٌّ لا يجوز التخوُّض فيه بحال! ومن عرف الله تعالى عرف كلَّ شيء.

ورأيت نماذج من هذا النوع ممَن عرف الله تعالى يتحرَّج أشدَّ الحرج أن يكتب في ورقة من ورق المال العام، وإذا غاب في يومٍ ما لعارض بعد نفاد الإجازة الاضطرارية دفع مالاً مقابل ذلك الغياب حتى لو كان بإذن المسؤول في تلك الدائرة!.

سئل بعض العارفين: بِمَ يستعين الرجل على غضّ بصره عن المحرَّمات؟ فقال: بعلمه أنّ رؤية الحق تعالى أسبق إلى نظره! وكم من إنسان يقلّب جوّاله، ويتَّقي كلَّ صورة ومشهد وصوت لكمال علمه بربّه الرقيب تعالى! وآخر يطمس في الخطايا من خلال هاتفه المحمول ألف مرّة فضلاً عن غيره لغياب هذا المعنى الكبير.

حدَّث ثوبان ﵁ عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لأعلمنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً، فيجعلها الله ﷻ هباءً منثوراً**»، قال ثوبان: يا رسول الله صِفْهُم لنا، جَلِّهم لنا أن لا نكون منهم، ونحن لا نعلم، قال: «**أما إنَّهم إخوانكم، ومن جِلْدَتِكُم، ويأخذون من الليل كما**

تأخـــذون، ولكنَّهـــم أقـــوام إذا خلوا بمحـــارم الله انتهكوها» رواه ابن ماجه وصححه الألباني، يجهدون ويتعبون ويصنعون كلَّ شـــيءٍ في الخير، ولكـــن فوات هذا الاسم (الرقيب) من حياتهم أضاع منهم كلَّ شيء!.

«ولكنَّهم أقوام إذا خلـــوا بمحارم الله انتهكوها»! يجب أن تُكتب في مدخل كلِّ فندق، وعند إرادة كلِّ سفر، وعند فتح كلِّ وسيلة من وسائل التقنية، وفي كلِّ لحظة ظلام، وعند كلِّ خلوة!

يقول أبو الدرداء: إنَّ العبد ليخلو بمعصية الله، فيلقي الله بغضه فـــي قلوب المؤمنيـــن من حيث لا يشعر!.



الحـفـيـظ

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرض الذي مات فيه، فقـال له: يا أمير المؤمنين! إنّك فطمت أفواه ولدك عن هـذا المال، وتركتهم عالة، ولا بدَّ من شيءٍ يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك مـن بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شـاء الله تعالى، فجلس عمـر رحمه الله تعالى فقـال: الحمـد لله، أبـالله تخوّفني يا مسلمة! أمّا ما ذكرت من أنّي فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإنّي لم أمنعهم حقّاً هو لهم، ولم أعطهم حقّاً هو لغيرهم، وأمّا ما سألت من الوصاية بهم إليـك أو إلى نظرائك من أهل بيتـي، فإنَّ وصيّتي بهم إلى الله الذي نزَّل الكتاب، وهو يتولَّى الصالحين، وإنَّما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله تعالى، فجعل الله له من أمره يسراً، ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غيّر وفجر، فلا يكـون عمر أوّل مـن أعانه على ذلك!

ومن ألقى بهمومه إلى الحفيظ حفظ له كلَّ شيء!.

وما أكثر ما يؤتى الإنسان من فوات حظِّه من هذا المعنى الكبير!.

وذكر أنَّ أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عظني، قال: بما رأيت أو بما سمعت؟ قال: بما رأيت، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكُفِّن بخمسة دنانير. واشْتُرِيَ له موضع قبره بدينارين، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً، ومات هشام بن عبد الملك، وخلَّف أحد عشر ابناً، فحصل لكلِّ واحد من ورثته عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مئة فرس في سبيل الله تعالى، ورأيت رجلاً من أولاد هشام بن عبد الملك يسأل الناس.

وصدق رسول الله ﷺ «**احفظ الله يحفظك**» يحفظ لك إيمانك، ويثبِّتك عليه، ويحفظ لك صحتك وبدنك وعافيتك، ويحفظ لك مالك ويرعاه لك، ويحفظ لك ولدك وأهلك وبيتك في حياتك وبعد موتك، ويحفظ لك كلَّ شيء.

كم مرَّةٍ تركــت بيتك، وودَّعــت أهلك، وأقبلت على مركوبك وألقيــت بقوتك وفكرك وجهدك وكلَّ شيءٍ منك جانباً، وسألت الحفيظ أن يتولاك: (**اللهمَّ إنَّا نسألك في ســفرنا هذ البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمَّ هوِّن علينا ســفرنا، واطوِ عنَّا بُعْدُه، اللهمَّ أنت الصاحب في الســفر والخليفة في الأهل، اللهمَّ إنَّا نعوذ بــك من وعثاء الســفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب**)! وكم من عوائد لهذا المعنى الكبير في حياتك وأهل بيتك دون أن تدري!.

نتعبّد الله تعالى بهذا الذكر، ويفوتنا أنَّنا نلقي بكلِّ ما نملك بين يديه تعالى، ويتولّى الله تعالى كلَّ شــيءٍ فنســافر ونتغرَّب وتطــول أيامنــا، فترافقنــا التقوى، ويلازمنا التوفيق، ونقضي كلَّ أشــيائنا، ونعود سالمين غانمين، وكلُّ ذلك أثر لذلك المعنى: (**اللهمَّ إنَّا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى**).

نلقي بأهلنا ومــا نملك في حفظه تعالى، فنذهب بعيداً وتطــول أيامنا ثم نعود بعد حيــن، وليس غير الأمن والطمأنينة والراحة والاستقرار في بيوتنا، وكلُّ

وما أكثر ما يؤتى الإنسان من فوات حظِّه من هذا المعنى الكبير!.

وذكر أنَّ أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد: عظني، قال: بما رأيت أو بما سمعت؟ قال: بما رأيت، فقال: توفي عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وخلَّف أحد عشر ابناً، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً، فكُفِّن بخمسة دنانير، واشْتُرِيَ له موضع قبره بدينارين، وأصاب كلُّ واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً، ومات هشام بن عبد الملك، وخلَّف أحد عشر ابناً، فحصل لكلِّ واحد من ورثته عشرة آلاف دينار، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مئة فرس في سبيل الله تعالى، ورأيت رجلاً من أولاد هشام بن عبد الملك يسأل الناس.

وصدق رسول الله ﷺ «**احفظ الله يحفظك**» يحفظ لك إيمانك، ويثبِّتك عليه، ويحفظ لك صحتك وبدنك وعافيتك، ويحفظ لك مالك ويرعاه لك، ويحفظ لك ولدك وأهلك وبيتك في حياتك وبعد موتك، ويحفظ لك كلَّ شيء.

كم مرَّةٍ تركـت بيتك، وودَّعـت أهلك، وأقبلت على مركوبك وألقيـت بقوتك وفكرك وجهدك وكلَّ شيءٍ منك جانباً، وسألت الحفيظ أن يتولاك: (**اللهمَّ إنَّا نسألك في سـفرنا هذ البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهمَّ هوِّن علينا سـفرنا، واطوِ عنَّا بُعْدُه، اللهمَّ أنت الصاحب في السـفر والخليفة في الأهل، اللهمَّ إنَّا نعوذ بـك من وعثاء السـفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب**)! وكم من عوائد لهذا المعنى الكبير في حياتك وأهل بيتك دون أن تدري!.

نتعبَّد الله تعالى بهذا الذكر، ويفوتنا أنَّنا نلقي بكلِّ ما نملك بين يديه تعالى، ويتولَّى الله تعالى كلَّ شـيءٍ فنسـافر ونتغرَّب وتطـول أيامنـا، فترافقنـا التقوى، ويلازمنا التوفيق، ونقضي كلَّ أشـيائنا، ونعود سالمين غانمين، وكلُّ ذلك أثر لذلك المعنى: (**اللهمَّ إنَّا نسألك في سفرنا هذا البرَّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى**).

نلقي بأهلنا ومـا نملك في حفظه تعالى، فنذهب بعيداً وتطـول أيامنا ثم نعود بعد حيـن، وليس غير الأمن والطمأنينة والراحة والاستقرار في بيوتنا، وكلُّ

ذلك أثر من حفظ الله تعالى لنا: (**اللهمَّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**)!.

نسافر وتمرُّ بنا حوادث مفجعة، ونرى أشياء مهولة، ويخفِّف الله تعالى عنَّا وعثاء ذلك السفر، ويعيدنا سالمين غانمين إلى أهلنا وبيوتنا في كلّ مرَّة: (**اللهمَّ إنَّا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب**).

في الصحيح أنَّ عامر بن الطفيل وأربد بن قيس كادا رسولَ الله ﷺ وسعيا في قتله، فدعا عليهما ﷺ، وأوكل أمرهما إلى الله تعالى، وسأل الله تعالى أن يقيه شرَّهما، وترك كلَّ شيءٍ للحفيظ فماذا صنع؟! أمَّا عامر بن الطفيل، فأصيب بغدَّة في نحره، وهو في بيت امرأة من بني سلول، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه وأقبل على فرسه، وهو يقول: غدَّة كغدَّة البعير، في بيت سلولية! فلم يزل على تلك الحال حتى سقط عن فرسه ميتاً، وأمَّا أربد بن قيس، فخرج ليبيع جملاً، فأرسل الله تعالى عليه صاعقة، فأحرقتهما هو وجمله ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤]!.

حفظ الله تعالى الكون من الخراب، فأمسك سماءه وأرضه عن الـزوال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٤١]، وحفظ كتابه تعالى من التحريـف والتأويل والعبث إلى يوم القيامـة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال أحـد النصارى، وهـو صاحـب مكتبة يبيع التوراة والإنجيل والقرآن، فقـال: لِمَ لا أعرف الحق بنفسي، فعمد إلى هذه الكتب الثلاثة ونسخها ووضع فيها تحريفاً لا يُـدرك إلّا بعناء، غيّـر حركة، وحرفاً وشيئاً من هذا، ثم طبع منها وباعها في مكتبته، يقول: فما عاد إليّ إلّا أبناء المسلمين الذين اشتروا القرآن، وقالوا لي: إنَّ هذه النسـخ محرَّفة وعمـدوا إلى كلِّ موضـع وبينوه، ولم يعـد إليّ من أصحـاب التوراة والإنجيل أحد، فعرف الحق وأسلم وحسن إسلامه!.

وحفظ الله تعالى بيته من بطـش أبرهة، وقد أعدَّ جيشاً، وتحزَّب له، ورصد كلَّ قوته، وخرج من اليمن بفِيَلَتِهِ، وليس همُّه سوى هدمه، والنكاية به ولمَّا رأت

قريش ذلك الجيش تركوا البيت، وذهبوا على رؤوس الجبال، وكان عبد المطلب ينشد ويقول:

اللهم إنَّ العبد يمنع رحله، فامنع رحالك
لا يغلبنَّ صليبهم ومحالهم غدوا محالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
إن كنت تاركهم وقبلتنــا، فأمر ما بدا لك

فتولَّى الله تعالى بيته وحفظه من كيد عدوه، وبعث بعض جنده ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ كلُّ طيــر يحمل حجراً، فيلقي به علــى رؤوس هــؤلاء، حتى جعلهــم عبرةً للتاريخ، وذكــرى للأجيــال ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل: ١ ـ ٥] وهذا الدرس سورة من كتاب الله تعالى تقرأ في كلِّ مرَّة، أنَّ الله تعالى تولَّى حفظ بيته، وجعل عدوَّه ذكرى وعظة وعبرة!

وتولَّى الحفيظ حفظ رسوله ونبيِّه ﷺ فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائـدة: ٦٧] وقد حاولت

أمم الكفر أفراداً وجماعات بكلِّ ما يملكون من قوة قتله ﷺ، وباءت كل تلك المحاولات بالفشل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

وفي حادث الهجرة بذلت قريش كلَّ ما تملك (مئة ناقة) لمن أمسك به ﷺ وأعاده إلى مكة من جديد، وهيهات للدرجة التي لحقوا به، ووقفوا على الغار الذي هو فيه حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله (لو أنَّ أحدهم اطَّلع إلى موضع قدمه لرآنا)! فقال ﷺ: **«يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما»**!.

وإذا العناية لاحظتك عيونها
نَمْ فالمخاوف كلُّهن أمان

وتولَّى الله تعالى حفظ نبيِّه موسى عليه السلام أمام جبَّار الأرض، وطاغية مصر الذي وقف متبختراً قائلاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، وحين شكى إليه بطش عدوِّه ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا

﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طـه: ٤٥، ٤٦] وقال لأوليائه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وحفظ الله تعالى مالَ أيتامٍ لصلاح والدهم في قريةٍ ترفض المعروف، ولا تقيم شأنه في مساحاتها ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

وحفظ الله تعالى عبده ورسوله يوسف عليه السلام في قعر البئر، وهيَّأ له من يأخذه ويخرجه من الظلام، وحفظه تعالى فزهَّدهم فيه، ولم يحرصوا على بقائه معهم، وباعوه بثمن بخسٍ دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين.

وحفظه تعالى في بيت الملك من فاحشة النساء وكيدهن، وحفظه تعالى في السِّجن، وهيَّأ له من أسباب الحياة حتى أخرجه ملكاً يدير شأن مصر ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وهذه سنَّة الله تعالى، مَنْ حفظ الله تعالى حفظه الله تعالى في نفسه وأهله وولده وماله وحفظه في كل شيءٍ، وفي الحديث قال ﷺ لغلامه ابن عباس: «**يا غلام إنِّي أعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده تجاهك**».

كم من إنسان ألقى الله تعالى في قلبه الإيمان وأسقاه من رحيقه، وأجرى عليه أفراح الحياة به ولكنَّه لم يحتف به، ولم يجلَّه ويعظِّمه ويقوم بحقِّه، فعاد إلى الضلال وترك دينه ومنهجه، وعاد ضالاً شارداً بعد أن كان مؤمناً في عداد الصالحين!.

كم من إنسان منَّ الله تعالى عليه بالعلم، وأجرى له في ذلك فتوحات عظيمة وهدايات كبرى، فلم يحفظ هذا المعنى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وقال الله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

حكى ابن كثير رحمه الله في كتابه: (البداية والنهاية) في أحداث سنة تسع وسبعين ومئتين قل: وفيها توفي عبده بن عبده الرحيم قبّحه الله، ذكر ابن الجوزي أنّ هذا الشقيّ كان من المجاهدين كثيراً في بلاد الروم، فلمّا كان في بعض الغزوات والمسلمون يحاصرون بلدة من بلاد الروم؛ إذ نظر إلى امرأةٍ من نساء الروم في ذلك الحصن فهويها، فراسلها: ما السبيل إلى الوصول إليك؟ فقالت: أن تتنصّر، وتصعد إليّ فأجابها إلى ذلك، فما راع المسلمين إلّا وهو عندها، فاغتمّ المسلمون لذلك، فلمّا كان بعد مدّة مرُّوا عليه، وهو مع تلك المرأة فقالوا: يا فلان! ما فعل قرآنك؟ ما فعل علمك؟ ما فعل صيامك؟ ما فعل جهادك؟ ما فعلت صلاتك؟ فقال: اعلموا أنّي نسيت القرآن كلّه إلّا قوله ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٢، ٣] وقد صار لي فيهم مال وولد!.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة «**سبعةٌ يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلُّه، الإمام**

العادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه مُعلَّق بالمساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنِّي أخاف الله، ورجلٌ تصدَّق، فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»! وكلُّ هؤلاء عظَّموا الله تعالى، وقاموا بحقِّه، وأجلُّوا أمره وحفظوه، فحفظهم الله تعالى في النهايات.

وما من مؤمن إلَّا وقد أوكل الله تعالى به ملائكة تحفظه وتحرسه كما قال تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

يحفظونه من أمر الله: أي بأمره تعالى وإذنه، قال مجاهد: ما من عبدٍ إلَّا وله ملك موكَّل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منهم شيء يأتيه يريده إلَّا قال وراءك إلَّا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال كعب الأحبار: لولا أنَّ الله ﷻ وكَّل بكم ملائكة يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطَّفتكم الجن.

كم مرَّةٍ دخلت في مشكلة، فأخرجك الله تعالى منها سالماً بعد أن أوشكت على الظلام والضياع! وكم مرَّةٍ تساهلت في قضيَّة، فكادت أن تلقي بك في الظلام لولا أنَّ الله تعالى نزعك منها بحفظه قبل النهايات!.

تخرج في سفرك أو طريقك أو حاجتك، فينجيك الله تعالى من حادث مروّع، وتبقى زمناً بعد ذلك الحادث، وأنت تحمده تعالى على حفظه، وتقع بينك وبين زوجك وولدك مشكلات، وتوشك بك على النزاع والطلاق والفراق، ثم يمنُّ الله تعالى عليك، فيسلُّ من واقعك كلَّ هذه المشكلات، وتعود الحياة أجمل من سابقتها بألف مرَّة.

في يوم الخميس الثالث من شهر محرَّم من عام ١٤٢٧هـ غادرت عبَّارة السلام ميناء ضباء السعودي إلى دولة مصر، وكانت الرحلة في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً، وكان العدد في السفينة يصل إلى ألف وخمسمئة راكبٍ، والعبَّارة من ثمانية طوابق، وفيها خليط من الجنسيَّات، وعلى بعد مئة

وسبعين كيلومتراً، وفي تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل اشتعلت النيران في العبّارة في قصة طويلة، وراح ضحية ذلك الحادث ما يقرب من (ألف وثلاثة وثلاثين راكباً)، وأصيب (ثلاثمئة وست وثمانون)! وكان من ضمن الناجين الذين حفظهم الله تعالى من آثار ذلك الحادث المروّع الشيخ حمود بن سالم شامان من تبوك، تحدَّث عن هذه القصة، فقال: بدأنا نشمُّ رائحة الدخان، فنظرت يميناً وشمالاً، فإذا بحريق يلتهم السفينة، وأصبح الناس في هلع شديدٍ، فحاولت أن أُهدِّئ من روعهم وأبشِّرهم بالشهادة، وهي التي أخبرنا عنها رسول الله ﷺ بأنَّ الغريق شهيد، ثم تعرَّفت أثناء ذلك على شخص يقال له علي القحطاني، فقال لي: انظر إليَّ جيداً، واحفظ شكلي إن ضيَّعتني ستجدني في الحرم، ثم صلَّينا الوتر، وذهبت لأتوضَّأ لصلاة الفجر، وأخذت سترة النجاة، فاشتدَّ صراخ الناس، وعظم الكرب، وانفجرت خزانات وَقود السفينة، ثم انقلبت في البحر، فهيَّأ الله تعالى لي قارباً فركبته، فإذا بشخص يستنجد بي، فإذا هو أخي القحطاني، وأدركتنا صلاة

الفجر، ونحن بالقارب، فوقفت وأذَّنت، ثم صلّيت إيماءً، ولأنَّ القارب صغير، والركاب كُثْر انقلب بنا القارب صباح الجمعة مع طلوع الشمس، وبقيت على ظهري والماء يدخل في أنفي، وإذا بصوت أخي القحطاني يستنجد بي، ولكنِّي لم استطع إعانته بشيء، فمات رحمه الله في تلك اللحظة، فأخذتني الأمواج، وكنت لحظتها أدعو الله تعالى، وأحاول أن أغلق أنفي وأشدُّ على نفسي، وبقيت على ظهري حتى زالت الشمس، فأذَّنت وصلَّيت الظهر والعصر جمعاً وقصراً إيماءً، فإذا بقاربٍ مقلوبٍ وبه رجال ونساءٌ وأطفال، فحاولت أن أركب معهم، ولكن أخذني البحر بعيداً عنهم، وتذكَّرت أهلي وناديت بصوتي كلِّه بأنَّ أبا عامر الشامان لا يزال حياً، وأخذتني الأمواج، ومالت الشمس، فتذكرت أنِّي في آخر ساعة الجمعة، فدعوت الله تعالى أن يُعجِّل لي بالفرج، فإذا بالطائرات تحلِّق فوق رأسي، فبحثت عن الصافرة، ولكن لم أجدها، وشاهدت سفينة، وحاولت الاقتراب منها، وكنت أسمع أصواتهم، ولكن لم أتمكَّن، وغابت الشمس، وجاء الليل

بظلامه، فأخذت الكشَّاف ووجـدت الصافرة، فإذا بقارب أشاهده من بعيد، فإذا به يقترب منِّي، وأسمع صافرة تنطلق من القارب، وأنا أطلق صافرتي كذلك بقوَّة، فشاهدوني واقتربوا منِّي فأخذوني وأركبوني، ووضعت على ظهري أكثر من عشـر سـاعات، ثم أخذوني إلى المستشـفى، وتفقَّدت جيبي، فوجدت جميع حاجياتي، ولم أفقد منها شـيئاً، ونظرت إلى الناس في المستشفى، فرأيت جثثاً هامدة، وقد بقيت في البحر سبع عشرة ساعة، قضيت منها اثنتي عشرة سـاعة على ظهري، وكان إنقاذي قبيل صلاة العشاء ليلة السـبت. فتأمَّل حفظ الله تعالى عبدَه، وهو في البحر على سـترة النجاة، ويـؤدِّي كلَّ صلواته في الوقت ذاته، ويخرج سـالماً وحتى محفظته التي في جيبه لم يصبها شـيء، ولم يفقد أيَّ شيءٍ في تلك الحادثة المروِّعة! وفي الحديث: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف علـى الله في الرخاء يعرفك في الشدَّة**»! رواه الترمذي وصححه شعيب الأرناؤوط.



الشَّافي

كم مرَّةٍ حلَّ بك المرض، وألقى بك إلى اليأس، وأخذ من قلبك كلّ شيء، وبات أمَلُك في الحياة كثقب إبرةٍ أو يكاد! ثم إذا بالله تعالى يأخذ بيدك، ويخفِّف عنك أثر مرضك ويمنحك أملاً، ويسقيك ربيعاً مورقاً، ويتجدَّد لك الأمل، ويشفيك بعدما أوشكت على الموت.

في مرَّات كثيرة تمرض، وتذهب إلى كلِّ المستشفيات، وتتواصل مع كلِّ الأطباء، وتستشير كلَّ من له علاقة بالصحَّة، ثم تعود في النهاية إلى الله تعالى، ومن خلال وصفة شرعية تلقى ما كنت تبحث عنه، وتجري فيك أنفاس الحياة من جديد.

من أدب إبراهيم عليه السلام مع ربِّه أنَّه نسب المرض والنقص إليه، ونسب الشفاء إلى ربِّه تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ومن أدبك مع ربِّك أن تعلم يقيناً أنَّ الذي يشفي ويعافي هو الله تعالى.

كم مـــرّةٍ أصابك المـــرض، وألقـــى بقلبك إلى الله تعالى؟ كم مرّةٍ شـــعرت بنقصـــك، وأدركت أنّ حاجتك وشأنك وشفاء مرضك مردُّه إلى الله تعالى؟.

كثيرة هي الأمراض، ومتنوعة ومختلفة ومتقلّبة، منها ما يصيب رأســـك، وأخـــرى تصيب قلبـــك، وثالثة تُلقي برداها في جوارحك، وخامسة وسادسة وعاشرة والإنسان جســـد واحد أقلُّ ما يلقاه من تلك الأمـــراض يبيت يتأوّه ينتظر الفجر لعلّه يلقى الحياة، ثم يشفى وينسى كلّ شيء، ويعود المرض، وتبدأ فصول المعاناة في حياته من جديد.

ثمّة أمراض تصيب جسدك، وأخرى ترمي بأثرها في قلبـــك، وثالثة تصيـــب مشـــاعرك، وبعض هذه الأمراض ينفع فيها علاج الأطبـــاء، وأخرى لا تنفع فيها إلّا الشريعة، وليس لها من حلول الأرض شيء.

ثمّة أمـــراض كبيرة جعلها الله تعالى من أســـباب الموت، وأمراض تأخذ زمناً من وقت الإنسان وماله وعمره، ثم تفيء إلى الشفاء بعد حين، وثالثة عارضة تزول أعجل ما تكون، وكلُّها تذكّـــرك بضعفك وقلّة حيلتك وحاجتك إلى ربك، وتُذكّـــرك بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾.

كلُّ مرضٍ لا يصلك بالله تعالى فهو شقاء! وكلُّ ألمٍ لا يردُّك إلى ربِّ العالمين فهو جهد وبلاء! وأعظم ما في الأمراض أنَّها تكسر كبرياء المتعالين، وتهزم قوَّتهم الظاهرية، وتذكِّرهم بأنَّهم بشر لا يشفون أنفسهم فضلاً عن أن يهبوا العالمين الشفاء.

جزء من مشكلاتنا أنَّه عندما يصيبنا المرض نهرع إلى العالمين، نبحث عن الأطباء، نجهد بكل ما نملك في تلمُّس الشفاء عند الخلق، ويأتي الله تعالى في قلوبنا ومشاعرنا متأخِّراً جدَّاً، بعد أن يثبت الله تعالى عجز كلِّ هؤلاء المخلوقين!.

يمرض الصغير فيبيت يتألَّم ويبكي، ويتلوَّى ويرى بأنَّ شفاء مرضه، ودواء جراحه عند والديه، وهذا غاية علمه وإدراكه ووعيه! ويمرض الكبير، فيظلُّ يبحث عن رقم الطبيب، وموعد العيادة، ودوام المستشفى، وينسى قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وهناك فرق بين صغير يحسب أنَّ أمَّه كلّ شيء! وبين كبير يعرف أنَّ الله تعالى كلُّ شيءٍ، ثم يبحث عن المخلوقين أوّل شيء.

كم هي الحالات التي حكم عليها الأطباء مجتمعون على أنَّ حياتها مسألة وقت، وقد انتهى كلُّ

شـــيء، ثم تولّاهم الله تعالى، وعادوا أحياء يصنعون كلَّ شيء، ومات جمع من أولئك الأصحّاء!.

حين يقــول لك كلُّ مــن هم في المستشــفى، العالِم منهم والجاهل، الطبيب العامُّ والمتخصّص، الاستشاري وغيره، بأنّه لا سبيل إلى شفاء مرضك، أو عافية جســدك، فليكن لديك يقين بأنَّ الله تعالى هو الشافي ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

أصيب أيــوب عليه السلام بالمرض، واشــتدَّ عليه البلاء، ضرر في بدنه، وضرر في ماله، وضرر في أهله، وبقي على ذلك البلاء ثماني عشرة سنة، وانفضَّ عنه كلُّ من حولــه، ورفضه القريــب والبعيد، فتعلَّــق بربِّه تعالى، وأقبل يسأله ملحّاً ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] وما زال صابراً محتسباً داعياً ملحّاً كلَّ هذا السنوات الطوال، حتى منَّ الله تعالى عليه بالشــفاء ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤] وكم من رجاء كان أعجل ما يكون على صاحبه بالخيرات!.

إذا مرضت، فتعلَّم كيف تدخل على الله تعالى من باب الدعاء! كيف تلج إليــه من باب الضعف والذلِّ

والمســكنة! كيف تتذلَّل له، وتلقي بقلبك ومشاعرك إليه قبل كلِّ شيء! حينها تكون (يا رب) التي تكرِّرها في يومــك وليلتــك، بيــن الأذان والإقامــة، وفي سجودك، وفي ساعة الجمعة، والسَّحَر أعظم لحظات عمرك على الإطلاق.

المرض يصيب المؤمن التقيَّ، المحســن المقبل على ربِّه تعالى، ليكفِّر خطيئته، ويرفع درجته، ويعلي ذكره، ويرفع شأنه في الدارين: «**ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذىً ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفَّر الله بها من خطاياه**» متفق عليـه، و«**ما يزال البــلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفســه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة**» رواه الترمذي، و«**أشــدُّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب إيمانه**».

ويصيب المتكبر الجبَّار المستعلي ليريه الله تعالى نفسه، ويبيِّن له مكانته، ويكسر قوَّته، ويكبح جماحه.

كم لله من حكمة في جبَّارٍ ملقى على سرير المرض ينتظر عطف ربِّه ورحمته، ويتوسَّــل إليه بكلِّ ممكن،

ويرجو ما يرجوه الفقراء والمساكين والضعفاء، لا فرق!.

لا مفرَّ للإنسان من هذا الضعف، ولا خلاص له من هذه الطبيعة، وسيظلُّ عرضة للأمراض سواء كان تاجراً أو فقيراً، مسكيناً أو عظيماً، صغيراً أو كبيراً رجلاً أو امرأة، عالماً أو جاهلاً، لا فرق!.

رأى أعرابيٌّ جنازة، فسأل عن ذلك فقيل له: إنَّ الموت يكثر في القرى، وإنَّ العافية في البوادي، فخرج إلى البادية فراراً من الموت، فرأى قبرين عند هضبة وكثيب، فقال:

وخبَّرتماني أنَّما الموت بالقرى
فكيف وهاتا روضةٌ وكثيب

لو لم يكن في المرض إلَّا أنَّه يعيدنا إلى الله تعالى، ونتعبَّد باسمه الشافي، وترقُّ قلوبنا لقضائه وقدره، وتكسر شهواتنا ومواطن الكبر فيها، ويعرف كلُّ إنسان منَّا قدره وموقعه لكان كافياً عن ألف درس.

كم من مريضٍ تخلَّى عن كبريائه، وعاد يعرف لله تعالى كلَّ شيء! وكم من مريضٍ تدارك نفسه وصلح حاله، وتاب إلى الله تعالى من أعمال لولا فضل الله تعالى بهذا المرض لبقي ضالَّاً عاتياً في الطريق!.

كم من مرضٍ مكّن صاحبه من الاستعتاب قبل الفوات، ورتّب نفسه، وقسّم ماله، وكتب وصيّته، ولم يلق الله تعالى حتى صنع كلّ شيء.

الله تعالى هو الشافي لأمراض جسدك، وعلل جوارحك، وهو الشافي لأسقام صدرك وقلبك، وهو الشافي لأدواء فكرك وعقلك، وما من عارض من عوارض الصحّة إلّا ولله تعالى فيه حكمة وألطاف، وتجري عليه أحداث العافية في النهاية.

الأمراض التي تصيبنا كثيرة، أكثرها وضوحاً وأقلها في الوقت ذاته خطورة أمراض الجسد التي تصيب كلّ إنسان، وهي في أسوأ أحوالها وأحلك ظروفها وأشدّ لحظاتها تجري عليك بأجور الدارين. وأخطر أمراضك على الإطلاق أمراض قلبك وفكرك وعقلك، وكم من إنسانٍ أوردته النهايات!.

كم من معلولٍ في قلبه، وفي كتاب الله تعالى أعظم وعيد ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]!.

كم من تاركٍ لدينه ومنهجه من الأصل بسبب أمراض الفكر وعلل العقل من خلال أمراض الشبهات!.

كم من إنسانٍ يرفل في أثواب العافية في جسده، وهو يعاني أشدَّ الأمراض خطورة وسقماً وأثراً في واقعه من خلال أمراض عقله وقلبه!.

كم في عالم اليوم من ملحد ناكر لربّه تعالى بعد أن كان في ربوع الإيمان! وكم من مرتدٍّ عن مباهج دينه بعد أن كان يشرب من معين الحياة! وأخطر ما يواجه الإنسان في عالم اليوم أمراض الشُّبه التي يُسوَّق لها من خلال الإعلام، وتجري فصول كثير منها في صور الحرية، وأشكال التمدُّن الحضاري، والخروج من ربقة التقليد.

الجهل في المقابل من أشدِّ الأمراض وأسوئها في حياة صاحبها، وهي البيئة الخصبة لكلِّ الأمراض والأوبئة التي تصيب الإنسان وتدمر مستقبله، وتأتي على كلِّ آماله.

(ما من داء إلَّا أنزل الله تعالى له شفاء) وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**لكلِّ داءٍ دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل**».

وفي المسند والسنن عن أبي خرامة قال: قلت يا رسول الله! أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به،

وتقاة نتَّقيها هل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «**هي من قدر الله**».

وفي صحيح مسلم، عن عثمان بن العاص أنَّه اشتكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له النبي ﷺ «**ضع يدك على الذي تألَّم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شرِّ ما أجد وأحاذر**».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إنَّ أخي يشتكي بطنه، وفي رواية استطلق بطنه، فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**» فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئاً، فقال له: «**اسقه عسلاً**»، ثم قال في الثالثة أو الرابعة: «**صدق الله وكذب بطن أخيك**».

وقال ابن القيم رحمه الله: وكان النبي ﷺ يشربه بالماء على الريق، وفي ذلك سرٌّ بديعٌ في حفظ الصحة لا يدركه إلَّا الفطن الفاضل. اهـ.

وفي البخاري قال ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيَّة بنار**».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: انطلق نفرٌ من أصحاب

النبي ﷺ في سفرة سافروها، حتى نزلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيِّد ذلك الحيِّ، فسعوا له بكلِّ شيءٍ لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيُّها الرهط! إنَّ سيدنا لدغ، وسعينا له بكلِّ شيءٍ لا ينفعه، فهل عند أحدٍ منكم من شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله إنِّي لأرقي، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيِّفونا، فما أنا براقٍ لكم حتَّى تجعلوا لنا جعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه، ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكأنَّما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبة، قال: فأوفوهم جُعْلَهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي ﷺ، فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنَّها رقية**»، ثم قال: «**قد أصبتم، اقسموا، واضربوا لي معكم سهماً**» فضحك رسول الله ﷺ رواه أبو داود.

قال ابن القيم رحمه الله: فقد أثَّر هذا الدواء في هذا الداء، فأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء

وأيسره، ولو أحسن العبد التداوي بالفاتحة لرأى لها تأثيراً في الشفاء.

قال رحمه الله: وكان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة منِّي وذلك في أثناء الطواف، وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسح بها على محل الألم، فكأنَّه حصاة تسقط، جرَّبت ذلك مراراً عديدة، وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم، فأقرأ عليه الفاتحة مراراً فأشربه، فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء. اهـ.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّه ﷺ كان يرقي بعض أصحابه ويقول: «**بسم الله، تربة أرضنا، بريقة بعضنا، يُشفى سقيمنا بإذن ربِّنا**»، أي أنَّ الإنسان يضع في أصبعه ريقاً ثم يضعه في الأرض، ويضعه على محل الألم ويدعو.

وكلُّ هذه الأدوية يجب أن يسبقها تعلُّق قلبك بربِّك، وأنَّه هو الشافي، وهي مجرَّد أسباب، وأنه لا مستحيل على الله تعالى، وهو الذي أنزل الداء، وهو كذلك الذي يقدر على كشفه وزواله بما أراد ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].



اللّطـيف

أراد اللّطيف تعالى أن ينقل يوسف ﷺ من بيته الصغير ومكانه الضيِّق ومساحته البسيطة إلى الملك والعز والحكم والرفعة، والقيام بشجون وشؤون دينه، فألقى في قلوب إخوته حسده والتآمر عليه، وصنعوا كلَّ شيءٍ حتى ألقوه في ذلك الجب.

ولو أنّك تأمّلت في هذه القصة لألقت إليك بألف سؤال: كيف انتقل من قعر البئر والظلام والوحدة والخوف والقلق والضياع والموت إلى عرش الملك في مصر؟! قل لي حدِّثني: هل تخيَّلت في ذهنك قبل أن تتمَّ السورة ما عاقبة يوسف، وهو يُلقى في قعر البئر، لا دلاء، ولا ناس، ولا أحد من الخلق إلّا الله؟!.

قل لي: هل خطر في بالك أنّه يرى النور، ويستنشق هواء الحياة بعد ضيقها، ويعود حرّاً بعد أن أصبح مقيّداً في الظلام! ويتنفَّس الهواء بعد أن ضاق عليه كلُّ شيء!.

هــل دار في بالــك وخاطرك أن يتحــوَّل هذا الظلام إلــى نور، وتلك الوحدة إلى عزٍّ وشــرفٍ، وذلك الضياع إلى إدارة ملــك، وصناعة حياة! لن تتخيَّل شــيئاً من ذلك إلَّا إذا قرأت قول الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ١٩]!.

إذا آمنت بهذا عرفت ذلك المعنى الكبير الذي بثَّه الله تعالى في قلب يوسف عليه السلام، وهو في الطريق إلى الظلام ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٥].

كم بين هذا المعنى الذي تخبر به هذه الآية في أوَّل بدايات الخطَّة ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وتلك النهايــة التي آل إليها لطــف الله تعالى ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

كم من مواقف وأحداث وقصــص طويلة وكثيرة ومتعدِّدة كانت تجري لغاية، وتتعــدَّد لهدف، وتأتي ضمن ذلك المعنى الكبير: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾!.

ولد موسى عليه السلام في زمن تلك الرؤيا التي أُخبر فيها فرعون بـأنَّ نهاية ملكه على يد غـلامٍ من غلمان بني إسرائيل، وكلُّ من أدرك ولادة موسى عليه السلام أقل ما يقول من شؤم هذه الأم ولادتها في هذا الزمن بالذات!.

هل تخيَّلت أمُّ موسـى عليه السلام وهي تضـع ابنها في تابوت، وترميه في البحر ثـم تعيده إليها! هل تخيَّلت اللحظة التي ذهب التابوت فيها بموسى في لجج البحر وإلى أين! إلى الضياع والموت والظلام والهلاك!.

لا شـيء غير ذلك في قلوب الذين شـهدوا القصَّة فضلاً عن قلب الأم! أما إنَّ القصَّة أكبر من كلِّ ذلك، إلى قصر عـدوِّه، والباحث عنه والطالب لقتلـه والذي جنَّد جنوده له ولأمثاله.. هل جـرى في خاطرك تلك اللحظة أنَّ فرعون سيبقيه حيّاً فضلاً عن أن يرعاه، ويتولَّى أمره، ويقوم عليه، حتى تجري له أحداث الحياة!.

لطف الله تعالى برسـوله ﷺ وصحابتـه في غزوة بدر، وما كان ذلك لهم على بـال، ولكن لطف العلي العظيم ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢].

خرج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم يريدون عير قريش فحسب، فلطف الله تعالى بهم، وقرَّب لهم رقاب الكفر والضلال وأعداء الحق ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧، ٨] ويأتون للمعركة، فيلقي الله تعالى عليهم النعاس ليقوِّي شوكتهم، ويربط على قلوبهم ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: ١١]!.

من نظر إلى شروط صلح الحديبية رأى بأنَّ ذلك فشل وإخفاق وذلٌّ وهوان وضعف وهزيمة وانحسار للإسلام، واغتمَّ المسلمون لتلك الشروط، وما كادوا يحلُّون من إحرامهم، ورفضوا كلام رسول الله ﷺ حتَّى دخل رسول الله ﷺ على أمِّ سلمة رضي الله عنها، فأشارت عليه بأن يحلق أولاً، ثم حلقوا وتحلَّلوا من إحرامهم رضي الله عنهم، ونزل قول الله تعالى بعد ذلك ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وكان هذا الفتح بعد ذلك بسنة وعشرة أشهر، ودخل الناس في دين الله تعالى أفواجاً، وتحقَّق النصر الكبير! وتحقَّق لطف الله تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

من لطف الله تعالى: أنَّه يشرح صدورنا للإسلام، ويقبل بنا على الحياة، ويجعلنا من عباده المؤمنين ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وكم من صادٍّ عن دينه، يعيش أسوأ وأشقَّ أزماته، وأسوأ لحظاته ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وأنت تولَّاك الله تعالى بلطفه فشرح صدرك، وأغاث روحك، وأجرى لك النعيم عاجلاً!.

ومن لطفه تعالى: أنَّه تعالى يسترنا رغم ذنوبنا، ويتجاوز عنا رغم جرأتنا، ويمهلنا رغم إصرارنا، ولا يزال بنا حتى يلقي هدايته في قلوبنا، فنستيقظ بعد زمنٍ طويلٍ من الإمهال، ويعيدنا إليه من جديد، ولو عاجلنا بالعقوبة لكشف سترنا، ولبقينا لا نستطيع أن نتوارى من المخلوقين في شيء.

ومن لطفه تعالى: أنَّه يصرفنا عن المعصية، وهي أقرب ما تكون إلينا، ويمنعنا منها وهي أسهل ما تكون، وليس ذلك من فقه الإنسان وكمال عقله وحرصه، ولكنَّ ذلك من لطفه تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ولو أوكلنا إلى نفوسنا لضعنا من أوَّل الطريق.

ومــن لطفــه تعالى: أنَّــه يقــدِّر أرزاقنــا بلطفه، فلا يعطينا ما يطغينا، ولا يمنــع عنَّا ما يعيننا، ويهب لنا من ذلك ما يصلح أحوالنا ويقبــل بنا إليه ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

ومن لطفــه تعالى: أنَّه يقــدِّر علينا من الأمراض والأدواء والمحن ليرفع قدرنا ويعلي شــأننا، ويبلغ بنا منازل في الجنان ما كنــا لنبلغها بأعمالنا، فينزل علينا من الداء ما يجعلنا في مراتب الصالحين، كما قال ﷺ: «**وإنَّ الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضِيَ فله الرِّضــا، ومن سَــخِطَ فله السَّــخَط**» رواه الترمذي، وقال ﷺ: «**وما يــزال البلاء بالمؤمــن والمؤمنة في نفســه وولده وماله حتى يلقى الله تعالــى وما عليه خطيئة**» رواه الترمذي، وقال ﷺ: «**ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشــوكة يشــاكها إلَّا كفَّر الله بها من خطاياه**» متفق عليه، كلُّ هذا حتى تعــرف ما معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

ومن لطفه تعالى: أنَّه يشرح قلبك لفكرة ومشروع وقضيَّة ممَّا يصلح شأنك في الدارين، ويبلغ بك آمالك في الحياة، ويترك لك أثراً بعد رحيلك، ويعينك عليها ويسدِّدك ويوفِّقك، ويمنع عنك كلَّ العوارض حتَّى تلقى منها مناك ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

ومن لطفه تعالى: أنْ يهب لك ولداً يصنع لك الحياة، يسعدك في بيتك، ويعينك على قضاء حوائجك، ويشرح صدرك، ويكون لك فألاً حسناً في الدارين، وتجده عونك في الملمَّات.

ومن لطفه تعالى: أن يمنع عنك الولد وترى ذلك حرماناً، والله تعالى جعله محبَّةً ولطفاً وامتحاناً، أراد الله تعالى أن يسلَّ قلبك من هموم انحرافه، ومن فوضى أيامه، ومن ديون واقعه، ويسلِّمك من كلِّ شيء ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يبتليك بمصائب وأمراض وعوارض ليوجد في قلبك حلاوة الإيمان وبرد

اليقين، وجلـد الصبر، حتى تصبح كبيـراً عظيماً بالصبر واليقين والإيمان: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يهبك صديقاً وصاحباً مورقاً بالحياة، يأخـذ بيـدك، ويبصّرك بديـن الله تعالى، ويعينك على معانيه، ويقوّي قلبك، ويكون سبباً كبيراً في ثباتك، وتجده عوناً لـك في الملمّات كما أغاث الله تعالى موسى عليه السلام بهارون ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ۝ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ۝ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ۝ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ۝ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴾ [طه: ٢٩ ـ ٣٥]، ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

ومن لطفـه تعالـى: أن يفتح عليك بـاب معصية ليحيي قلبك، ويسـتخرج منك عبوديّاتٍ ما تخرج إلّا بذلك، قال ابن القيم رحمه الله: فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه في ذنبٍ يكسره به ويعرِّفه قدره، ويكفي به عباده شـرَّه، وينكِّس به رأسه، ويسـتخرج منه داء العُجب والكبر والمنَّة عليه، وعلى عبـاده، فيكون هذا الذنب أنفع له من طاعاتٍ كثيرة، ويكون بمنزلة شراب الدواء ليستخرج به الداء العضال. اهـ ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يمنَّ عليك بأخلاق وسِعَةِ صدر وحسن معاملة وانشراح بال، فتحمل كلَّ من تلقاه على حسن الخير والفأل، ويجري له تعالى في هذا المعنى من العبوديّات التي لم تكن له على بال كما قال ﷺ: «**إنَّ من أحبِّكم إليَّ وأقربِكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**» رواه الترمذي، وقوله ﷺ: «**إنَّ صاحب حُسْن الخُلُق ليبلغ به درجة الصائم الذي لا يفطر والقائم الذي لا يفتر**» وتراه مقتصداً في كثيرٍ من العبادات وقد ضرب في سهم الجنان ما لم يكن على بال! ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يرزق بعض خلقه بتوفيق وحسن نيّة، فما قدر عليه وما تيسَّر له عمله لا يتردَّد في ذلك مطلقاً، ويرى من فأله وحسن طالعه أنَّ الله تعالى يطلعه على بعض الأعمال ليعملها، وإذا تخلَّف عنه من ذلك شيء قامت نيّته تجري مجرى تلك الأعمال في واقعه في كلِّ شيء ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يفتح لك باب خيرٍ لم يكن لك على بال، ثم يعينك على مواصلة الطريق،

ويرغِّبك فيـــه، ويوجِد لـــه رواجاً وفرحـــاً في قلبك، فلا تكاد تفارقه ما بقي من العمر ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يأجرك الله تعالى على أعمال لم تعملها، ولكن حسَّـــنت فيها النيَّة، وعزمت عليها صادقاً، ثم توقَّفت تلك الأعمال لسببٍ من الأسباب العارضة، فجرت كما أنَّها قائمة لم يتخلَّف منها شيء ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

ومن لطفه تعالى: أن يـــرزق عبده المواظبة على مشروعٍ من المشـــاريع، ويبقى عليه زمناً طويلاً، ثم تعرض عوارض يتوقَّف ذلك المشروع، وتبقى تلك الأجور والفضائل تجري على صاحبها ما بقي ذلك العارض ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

ومن لطفه تعالى: أنَّ عبده يريد زواجاً والله تعالى يمنعه منـــه، وتتهيَّأ لـــه فرصة عمـــل، ويصرفها الله تعالى، ويعرض له مشـــروع فلا يشـــرح الله تعالى صدره إليه، ثـــم يهيِّـــئ الله تعالى له زواجـــاً آخر، وفرصة أثمر من سابقتها، ومشروع أثمن من الأوَّل ألف مرَّة ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ فإذا جرى عليك شيء من حوادث زمانك، فكن حَسَنَ الظنِّ بربِّك وتذكَّر: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾.

من لطفه تعالى بك: أنَّه أعطاك كلَّ شيء، وقصر شكره على القليل، فرض علينا خمس صلوات في اليوم والليل، وفرض علينا صيام شهر من اثني عشر شهراً، وكان فرض الحج مرَّة في العمر، وإذا سافر العبد أو مرض كُتب له من العمل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً.

ومن لطفه تعالى بك: أنَّه يخفي عاقبتك في الآخرة ليحضَّك على العمل، ويسوقك إلى الخير، ويحفِّزك على استدراك كلِّ قصور حتى تأتي على أمانيك.

ومن لطفه تعالى بك: أنَّه حملك على النسيان، فتمرُّ بك أحداث الدهر ثم ما تلبث أن تنساها وكأنَّها لا شيء، ولو أبقى لك شيئاً من ذلك لبقيت حزيناً ما بقي من العمر.

ومن لطفه تعالى: أنَّك تقع في الخطيئة، فيعظِّمها في قلبك حتى تعود إليه، ويستخرج منك بها عبوديَّات ما كانت منك على بال.



ومن لطفه تعالى بك: أنَّه ينسيك أثر هذه السيئات مع مرور الزمن حتَّى لا تبقى عائقاً لك عن الحياة.

وكـــم لله مـــن لطـــفٍ خفـــيٍّ
يدقُّ خفـــاه عن فهـــم الذَّكيِّ

وكم يُسْـــرٍ أتى من بعد عسرٍ
ففرَّج كُربـــة القلب الشَّـــجيِّ

وكم أمـــرٍ تُســـاء بـــه صباحاً
وتأتيـــك المســـرَّةُ بالعشـــيِّ

إذا ضاقت بـــك الأحوال يوماً
فثـــق بالواحـــد الفـــرد العليِّ





المـراجـع

- موسوعة أسماء الله الحسنى: (محمد راتب النابلسي).
- ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها: (عبد العزيز الجليل).





الفهرس

- كلٌّ منَّا يعرف شيئاً عن ربِّه، ولكنهُ لا يعرف أشياء! يتعبَّدُ له في كلِّ مرَّة، ولكنه لا يشعرُ بذلك الرواءِ!.

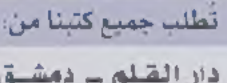
- كم مرَّة تنازعَ في قلبك قراران، وبقيت ضالًّا عن الأفضلِ والأحسنِ والأسلمِ عاقبةً، حتَّى هداكَ الله؟!.

- وكم مرَّة وقعت في مشكلةٍ، فحاصرتك أسئلةٌ متكررة: ما المخرجُ؟ وكيفَ؟ ومن أين؟.
فدلَّكَ الله تعالى على الطريق؟!.

- وكم مرَّة أُصبت بمرضٍ، وبذلتَ جهدكَ في الشفاءِ، وضاقت بك الحيلُ، ثمَّ أجرى الله تعالى شفاءكَ من أقربِ الطُّرق؟!.

- لن أسردَ عليك بقيةَ الأسئلة، ولكن سأدعُك تتعرَّفُ على ربك من خلالِ أسطرِ هذا الكتاب (ما أعظمَكَ!) ثمَّ أنتظر منكَ بعد ذلك الجواب.

المؤلف



تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
Email: kalam-sy@hotmail.com

الدار الشامية ـ بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزَّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدَّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١



ISBN 978-9933-29-254-6